السيرة النبوية
أهميتها . أقسامها
مقاصد دراستها

الدكتور محمد بن صامل السلمي
الأستاذ المشارك بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى

مصدر هذه المادة :





دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلام على إمـام المـتَّقين وقدوة النَّاس أجمعين رسول ربِّ العالمين محمَّد بن عبد الله، وعلـى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فهذا بحثٌ عن أهميَّة السِّيرة النَّبويَّة لحياة المسلمين وحاجتـهم؛ بل وضرورتهم إلى معرفتها والاهتداء بهدي صاحبها ﷺ، والـذي سيكون طريقَهم لبناء الجيل الذي يؤمِّلُ إجـادةَ صـناعة الحيـاة الصَّحيحة، والعودة بالأمَّة إلى سابق عهـدها وسـلفها الصَّـالح، والخروج من المأزق الذي تعيشه؛ فما أحوج أمَّة الإسلام اليوم إلى بناء النُّخبة وثلة النَّصر التي تفهم الرِّسالة، وتدافع أقدار الله بأقـدار الله، وتؤسِّس للنَّهضة الحضاريَّة بمفهومها الصَّـحيح كمـا صـنع أسلافها من أصحاب نبيِّنا ﷺ.

إنَّ البناءَ العقديَّ الإيمانيَّ المؤسَّسَ على الحقائق والبراهين هـو القاعدة التي عمل النَّبيُّ ﷺ على ترسيخها طوال مدَّة الرِّسالة، وكان الوحي يتنزَّل عليه مرة تلو الأخرى مؤكِّدًا على هذه الحقيقـة؛ لأنَّ العقيدةَ هي نبعُ التَّربية وميزان السُّلوك وحَجَرُ الزَّاويـة في الفكـر والتَّوَجُّه، ومع البناء العقديّ كان البنـاءُ السُّـلوكيُّ الأخلاقـيُّ والاجتماعي والاقتصادي بل والسِّياسيّ يسـير جنبًـا إلى جنـب

متكاملة ومتوازية في نسق واحد؛ جمعًا لشتات النَّفس وتوجيه الهمّ ليكون همًّا واحدًا، وبذلك نمت الأمَّةُ وتكاملت شخصيَّتُها واشتدَّ عودُها، وأثمرت علمًا وأدبًا وحضارةً باسقةَ البناء وارفةَ الظِّلال، بسطت أشعَّتَها ونورَها على البشريَّة فأخرجتها من ظلمات الجهل والظُّلم والاستكبار إلى نور الحقِّ والعدل والرَّحمة والمساواة والإنسانية في أصدق معانيها وأجلى صورها.

وإنَّ دراسةَ السِّيرة بهذه المعاني العميقة والمفاهيم الواضحة ستُضفي على دارسها الأمنَ والطُّمأنينة وسعادة الحياة والرغبة المستمرة في الدراسة والتأمل في دلائلها وفوائدها.

وقد ذكرتُ جملةً من فوائد دراسة السِّيرة النَّبويَّة وأهداف دراستها ذات الارتباط بمقاصد الشَّريعة وأحوال المتعبِّدين؛ عسى أن تكون مساعدةً في البناء التَّربويِّ للأمَّة وإخراج الجيل الحاضر من مشكلاته وتوجُّهاته المتشعِّبة والمختلفة الموارد والمصادر، والعودة إلى المصدر الحقِّ والمنبع الصَّافي الذي سيكون فيه الهدى والشِّفاء لكلِّ العلل والأمراض التي أصابته إذا أخلص النِّيَّة ووحَّد المقصدَ، وارتفع عن الشَّهوات الهابطة، وتحرَّر من الأفكار الوافدة، واهتمَّ بمعالي الأمور.

فإذا تربَّى على هذه المعاني والأهداف العالية ارتفعت همَّتُه وسَمَت رغبتُه إلى ما هو أعلى وأغلى من كلِّ هذه الدُّنيا ممَّا أعدَّه الله لعباده المتَّقين؛ فإنَّ موضعَ السَّوط في الجنة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ونصيف المرأة– أي خمارها– خير من الدُّنيا وما فيها.

وليس معنى هذا إهمال الدنيا كما فهم طائفة من الناس؛ وإنَّما المنهج الرَّبَّانيُّ منهجٌ متكاملٌ ومتوازنٌ، والدنيا هي دار العمل ومزرعة للحصاد في الأخرى، وعمارتها وفقَ أحكام الله وشرعه مطلبٌ شرعيٌّ وتوجيهٌ نبويٌّ.

ولقد حرصتُ على الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النَّبويَّة الصَّحيحة؛ لأنَّ البناءَ العلميَّ والتَّربويَّ لابدَّ أن يكون مؤسَّسًا على نصوص ومصادر موثوقة؛ حتَّى يصحَّ التَّأسِّي والاقتداء.

وأسأل الله- سبحانه وتعالى- أن ينفعَ به ويجعلَه من العمل الخالص لوجهه؛ إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

تعريفُ السِّيرة النَّبويَّة

السِّيرةُ لغةً: قال ابنُ فارس: السِّين والياء والرَّاء أصلٌ يدلُّ على مضيٍّ وجريان؛ يقال: سار يسير سيرًا. والسِّيرةُ: الطَّريقةُ في الشَّيء، والسُّنَّةُ؛ لأنَّها تسير وتجري[1].

وقال ابنُ منظور: «السِّيرةُ: الطريقة. يقال: سار بهم سيرةً حسنةً. والسِّيرةُ: الهيئة، وفي التَّنزيل الكريم: ﴿**سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى**﴾ [طه: ٢١]. وسيَّر سيرةً: حدَّث أحاديثَ الأوائل»[2]، وبهذا يكون معنى السيرة النبوية في اللغة: ما أضيف إلى النَّبيِّ ﷺ من السُّنَّة والطَّريقة والهيئة وأحاديث الأوائل.

السِّيرةُ اصطلاحًا: لها دلالات متنوعة؛ فقد تكون مرادفةً لمعنى السُّنَّة عند علماء الحديث؛ وتعني طريقة النَّبيِّ ﷺ عند علماء العقيدة والأصول، كما تعني عند علماء التاريخ أخبارَه ومغازيه ﷺ. وهذه الدلالات والمعاني ليست متضادَّةً؛ إنَّما هي متنوِّعةٌ ومتكاملةٌ.

وبهذا نستطيع أن نقول في تعريف السِّيرة النَّبويَّة اصطلاحًا: هي دراسة حياة النَّبيِّ ﷺ وأخباره وأخبار أصحابه على الجملة، وبيان أخلاقه وصفاته وخصائصه ودلائل نبوَّته وأحوال عصره؛ فالسِّيرةُ النَّبويَّة تشمل كلَّ ما يتعلَّقُ بالنَّبيِّ ﷺ، وأحوال عصره، وأخبار أصحابه؛ لأنَّ السِّيرةَ هي: فعله ﷺ وإقرارُه لفعل أصحابه رضي الله

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/ ١٢٠.

(٢) لسان العرب ٤/ ٣٩٠ مادة (سير).

عنهم[١].

أهمية دراسة السِّيرة النَّبويَّة:

إنَّ دراسةَ السِّيرة النَّبويَّة ليست كدراسة سيرة بطل من الأبطال فحسب– وإن كان هو ﷺ بطل الأبطال– فلا تقرأ وتتعلم لأجل المعرفة أو إشباع رغبة حبِّ الاستطلاع وزيادة الرَّصيد المعرفيّ فقط؛ بل يجب أن تكون الدِّراسة للسِّيرة النَّبويَّة ذاتَ أهداف واضحة ومرتبطة بمقاصد الشَّريعة وأحوال المتعبِّدين، وباحثة عن الهدى والصِّراط المستقيم، ومؤدِّية إلى مرضاة ربِّ العالمين؛ لأنَّ السِّيرةَ مصدرٌ من مصادر التَّشريع ومنهجٌ لحياة كلِّ مسلم، ولابدَّ أن يدرك القارئُ للسِّيرة النَّبويَّة أهمِّيَّتَها التَّربويَّةَ والتَّشريعيةَ والاجتماعية والإدارية والسياسية؛ لأنها تطبيقٌ عمليٌّ لنصوص الوحي في كافَّة مناحي الحياة الإنسانية، وعليه أن يعي ذلك وعيًا كاملاً؛ حتى يستخرج كنوزَها، ويستفيد من عبرها، ويحصل له خيرها بمتابعة صاحبها ﷺ والتَّأَسِّي بمواقفه وأحواله.

إنَّ هذه السِّيرةَ العطرةَ مليئةٌ بالكنوز والدُّروس والعبر التي لا يدركها إلَّا مَن تعلَّمها بقصد الاتِّباع لصاحبها عليه الصَّلاة والسَّلام، والتربية على مقاصدها وعبرها؛ فهي مادَّةٌ تربويَّةٌ سلوكيَّةٌ تبني الشَّخصيةَ السَّويَّةَ المتكاملةَ وتُقَوِّمُ السُّلوك المعوجّ.

ولذا فإنَّه يجب على المسلمين بصفة عامة والعلماء والمربِّين بصفة خاصَّة الاعتناء بدراسة السِّيرة النَّبويَّة، والحرص على ما صحَّ

(١) ابن تيمية مجموع الفتاوى ٧/ ١٨.

من أخبارها؛ حتى يحصل التَّأسِّي والمتابعة على الوجه الصَّحيح.

وإنَّ المناهجَ التَّربويَّةَ والدَّعوات الإصلاحيَّة ستكون قاصرةً وناقصةً- بل خاسرةً وباطلةً- إذا لم تقتبس من هدي المصطفى ﷺ وتلتزم به اعتقادًا وسلوكًا ومنهج تفكير.

والسِّيرةُ النَّبويَّة معينٌ لا يَنْضَبُ وتراثٌ لا يَبْلَى لكلِّ مَن رجع إليها وتأدَّب بأدبها واقتبس من مشكاتها، وقد فقه الصَّحابةُ- رضي الله عنهم- هذه المعاني في السِّيرة، وأدركوا أهميَّتَها؛ فكانت مع القرآن الكريم هي منهج التَّربية للأجيال ومادَّة البناء الفكريّ والسُّلوكيّ، ومَحَطّ الاهتمام والعناية.

يقولُ عليُّ بن الحسين زين العابدين[1]: «كنَّا نعلِّم مغازي رسول الله ﷺ كما نعلِّم السُّورةَ من القرآن»[2]. وكان إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقّاص يحفِّظ أبناءه مغازي رسول الله ﷺ ويعدّها عليهم، ويقول: «هذه مآثرُ آبائكم فلا تضيِّعوا ذكرَها»[3].

وبهذا المنهج العالي كان جيلُ الصَّحابة- رضوان الله عليهم- ثمَّ التَّابعين أرقى أجيال الأمَّة وأقواها علمًا وعملاً وأثرًا في واقع الحياة وبناء الحضارة؛ فكانوا قادةً وسادةً معتزِّين بمنهجهم مؤثِّرين في

---

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، كان مع والده الحسين يوم قتل بكربلاء، شابًا، مريضًا، ولذلك لم يقتل، له ترجمة حافلة في الطبقات الكبرى ٥/ ٢١١، وقال: كان ثقةً مأمونًا كثيرَ الحديث عاليًا رفيعًا ورعًا، مات بالمدينة سنة ٩٤هـ ودفن بالبقيع.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٤٢٤.

(٣) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ١٩٥.

غيرهم غيرَ متأثِّرين؛ فقد حقَّقت السِّيرةُ النَّبويَّةُ للجيل الأوَّل السِّيادة والرِّيادة في كلِّ الميادين الخيِّرة النَّافعة، ونشروا العدل والأمن والإسلام في كلِّ بلد وصلوا إليه وانتشر فيه نور الحقّ.

والأمَّةُ الإسلاميَّةُ اليومَ أحوجُ ما تكون إلى هذا المنهج في دراسة سيرة نبيِّها ﷺ والاعتزاز بها؛ لترتفع إلى مكان الصَّدارة والرِّيادة، وتحصل لها القدرة والتَّمكُّن من القيادة الرَّاشدة للمجتمعات الإنسانيَّة، وتتحمَّل المسؤوليَّةَ تجاه هداية البشريَّة وردّها إلى الصِّراط المستقيم، وتكون خير أمَّة أخرجت للناس في قضاء الله وحكمه، وفي واقع حياتها؛ قال تعالى: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ [الحج: ٧٨].

فالله جعل هذه الأمة وسطًا؛ أي عدولاً وخيارًا، وجعلها شهيدةً على الناس جميعًا، ورسولها ﷺ هو خاتم الرُّسل وأفضلهم، وهو شهيد على أمته بإبلاغها ما أُنزل إليه من الوحي، وببيان الوحي المتلوّ بسنَّته القوليَّة، وبسنته الفعليَّة، وبتقريره؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ***﴾ [النجم: ٣، ٤].

وقد أدَّى عليه الصَّلاة والسَّلام الشَّهادةَ كاملةً وبلَّغ البلاغَ المبين، ورفع الأمَّةَ بهذا الوحي إلى مراقي النَّجاح والفلاح بعد أن

كانت أمَّةً أميَّةً تعيش في ضلال مبين؛ قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [الجمعة: ٢].

فالرَّسول- عليه الصَّلاة والسَّلام- هو معلِّم الكتاب ومبلِّغ الوحي إلى عباد الله، وهو مزكِّي النُّفوس بهذا الوحي، وهو منقِّي المسالك من الضَّلالات والأهواء والانحرافات، وهو مبين بسيرته لكيفيَّات تنزيل القرآن على الواقع، وتقويم السُّلوك البشريّ بهدي القرآن وبناء الأمَّة والمجتمع العالميّ بالعلم والتَّزكية للنُّفوس والأخلاق[1].

وهذه الآيةُ تضمَّنت أثرَ الوحي في بناء الأمَّة المسلمة، وأنَّه مادَّةُ بنائها وقاعدة فكرها ومنطلَق تصوُّراتها؛ كما تضمَّنت بيانَ وظيفة الرَّسول ﷺ ومهمَّته من تلاوة الوحي؛ وهي: تعليمه لهم، وتربيتهم على مقتضياته، وتزكية نفوسهم وأخلاقهم من خلال قوله وفعله، والأمَّةُ مطلوبٌ منها للشَّهادة على النَّاس القيام بواجب البلاغ والعمل بذلك؛ حتى تكونَ قدوةً للنَّاس جميعاً، ولكي تحصل لها القدرةُ والتَّمَكُّن من أداء الشَّهادة على وجهها يلزمُ أن تكونَ في موقع القيادة الرَّاشدة للمجتمعات الإنسانيَّة، والرِّيادة في كلِّ المجالات النَّافعة، وتَحَمُّل المسؤولية تجاه هداية البشريَّة جمعاء إلى

(١) انظر: تقديم عمر عبيد حسنة لكتاب الأمة رقم (٥٤) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١١.

الحقِّ والهدى.

وقد تحقَّق السِّيادةُ والرِّيادةُ للجيـــل الأوَّل عنـــدما صَـــدَقَ في التَّأسِّي والمتابعة للرَّسول ﷺ؛ فتمكَّن من التَّطبيق الواقعيّ لنصـــوص القرآن والسُّنَّة، ولابُدَّ لاستئناف الحياة الإسلاميَّة الصَّحيحة من تمثُّل السِّيرة النَّبويَّة في الواقع المعاش على مختلف المســتويات، وفي كـــل المواقع والنَّواحي، وأن تكون دراستُنا للسِّيرة النَّبويَّة بهـــذه المعـــاني العميقة والنَّظرة الشَّاملة، والفقه الواعي؛ حتى نصنعَ جيلَ النَّهضـــة، وثلَّة النَّصر وقاعدةَ التَّمكين للأمَّة.

وقد مرَّت حياةُ الرَّسول ﷺ بمراحل وأطوار مختلفة، وجعل اللهُ في سيرته وتصرُّفاته تنوُّعًا وشمولاً لكلِّ جانب من جوانـــب الحيـــاة ومواقفها المتغيِّرة؛ لتكون مساحةُ الاقتداء والتَّأسِّي واسعةً وشـــاملةً لكافَّة القُدُرات البشريَّة بفروقها الفرديَّـــة وســـجاياها الفطريَّـــة؛ فالرسول ﷺ قدوةٌ لكلِّ المسلمين على مختلَف عصـــورهم وتعـــدُّد مواقعهم الجغرافية وأحوالهم العلميَّة ومراكزهم الإداريَّة؛ قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْـأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: ٢١، ٢٢].

قال الحافظُ ابنُ كثير[(١)]: هذه الآيةُ أصـــلٌ كـــبير في التَّأَسِّـــي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر النَّاسَ بالتَّأَسِّـــي

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٩١.

بالنَّبيِّ ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطتــه ومجاهدتــه وانتظاره الفرج من ربِّه عزَّ وجلَّ، ولهذا قال- تعالى- للذين تقلقلوا وتضجَّروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾؛ أي: هلَّا اقتديتم به وتأسَّــيتُم بشمائله؟

ثم قال عزَّ وجلَّ مخبرًا عن عباده المؤمنين المصدِّقين بموعــود الله لهم، وجَعْله العاقبة حاصلةً لهم في الدُّنيا والآخــرة: ﴿**وَلَمَّــا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾؛ أي: هذا ما وعدنا اللهُ ورسولُه من الابتلاء والاختبــار والامتحان الذي يُعْقُبُه النَّصرُ القريب؛ والمراد- كما قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه وقتادة- قولُه تعالى في سورة البقرة: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَــبْلِكُمْ مَسَّــتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَــهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ فهذه الآيةُ الآمرةُ بالتَّأَسِّي بالرَّسول ﷺ نزلت بمناسبة غزوة الأحزاب حين رمى أهلَ الشِّرك والكفر المسلمين عن قوس واحدة وتحزَّبوا عليهم؛ حيث زلزلت النُّفوسُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وكاد أن يهتــزَّ الاقتــداءُ لتأخُّر النَّصر؛ فجاءت لتؤكِّدَ أنَّ الاقتداءَ إنَّما يكــون في مــواطن الشِّدَّة والصَّبر والبأس والضِّيق ومؤشرات فوت الحياة الدُّنيا، وتُبَيِّن كيف أنَّ الارتباطَ بالآخرة هو سبيلُ الصُّمود والحماية من السُّقوط؛ فالاقتداءُ لا يكون في اليسر دون العســر، والاقتــداء لا يكــون بالكماليَّات والتَّحسينيَّات من مقاصد الشَّريعة دون الضَّــروريَّات

والحاجيَّات، والاقتداء لا يكون بالأشكال دون الأفعال.

ومع أهمية الاقتداء بكلِّ أفعال الرَّسول ﷺ وأثرها في صياغة الشَّخصيَّة المسلمة وبنائها على طريقة التَّربية النَّبوية إلَّا أنَّه من المعلوم أنَّ للدِّين والشَّريعة الإسلاميَّة مقاصدَ تتمثَّل في تحقيق ضروريَّات لا تقوم الحياة إلا بها، وحاجيَّات لا تحمى وتُقام الضَّروريَّاتُ إلَّا بتوفيرها، وكماليَّات وتحسينيَّات تعدُّ أمورًا جماليَّةً انعدامُها لا يؤثِّر كثيرًا في قيام الحياة الصَّحيحة المستقيمة.

والمشكلةُ التي تعاني منها الأمَّةُ اليومَ هي التَّخاذلُ والتَّفريطُ في الاقتداء بالرَّسول ﷺ في الضَّروريَّات والمقاصد الكبرى للدِّين، وإذا وجد اقتداءٌ فهو في التَّحسينيَّات التي لا تكلف جهدًا وتضحيةً وبلاءً؛ فهذه قضيةٌ بحاجة إلى إدراك ومعالجة.

وقضيةٌ أخرى هي كذلك بحاجة إلى تحرير القول فيها بعد أن تحوَّل كثيرٌ من المسلمين في التاريخ المعاصر من التَّوَكُّل إلى التَّواكل والإرجاء والعجز عن التَّعامل مع الحياة المعاصرة وتقويم مسيرتها؛ لقد خرج كثيرٌ من الناس من الحياة وافتقدوا القدرةَ على التَّعامل مع مشكلاتها في ضوء السِّيرة النَّبويَّة، فانتهى بعضهم إلى المقابر؛ سواءٌ في ذلك مَن يَعتبر الأمواتَ سبيلاً لحلِّ مشكلاته، فيستغيث بهم، أو مَن يعتبر الأموات سببًا لمشكلته فيرى معركته معهم؛ فألقى اللَّومَ عليهم، واشتغل بسبِّهم.

وبعضٌ آخرُ حاولَ سَتْرَ عجزه عن الاقتداء بالنَّبيِّ ﷺ والتَّأسِّي به بالإسقاط وإلقاء اللَّوم على الآخر من عدوٍّ خارجيٍّ أو عميل

داخليٍّ [١].

والقضية التي نعرض لها هي أنَّ مسيرةَ السِّيرة النَّبويَّة كلَّها تحقَّقت من خلال التَّعامل مع السُّنَن الجارية التي تقتضيها بشريَّةُ الرَّسول ﷺ وتحملُها عَزَماتُ البشر؛ لتكون السِّيرةُ محلًّا للاقتداء وإعادة البناء في كلِّ زمان ومكان[٢]؛ إذ الاقتداء يقتضي العمل بالسُّنن الجارية، والفاعليَّة في الحياة، والحركة بذلك؛ أمَّا السُّننُ الخارقة والمعجزات والكرامات فلا تأتي إلا بقدر الله، ولمن قام بالواجب عليه حسب السُّنَن الجارية والشَّريعة المقرَّرة؛ وهي من إكرام الله لأوليائه، ونصره لهم، وتأييدهم بها، ولا يكونوا أولياءَ لله حتى يحقِّقوا الإيمانَ والتَّقوى.

إنَّ انتظارَ الكرامات والخوارق دون العمل يفتح الباب لإشاعة الخرافة والبدعة وتغييب السُّنَّة التي هي القانون الجاري، ومن الأمور الملفتة للنَّظَر تسميةُ طريقة الرَّسول ﷺ في التَّعامل مع الحياة والأحياء سنَّة بكلِّ ما تحمل هذه التَّسمية من دلالات في المنهج والقانونية والإطراء [٣].

إنَّ آيةَ الاقتداء نزلت يوم الأحزاب– كما أسلفنا، وقد أخذ الرَّسولُ ﷺ وأصحابه بالأسباب، وحفروا الخندق، وعندما واجهت بعضَهم صخرةٌ كبيرةٌ وعجزوا عن تفتيتها استعانوا برسول الله ﷺ،

---

(١) عمر عبيد حسنة، مرجع سابق، ص ٣٠ بتصرف يسير.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣١.
(٣)المرجع نفسه، ص ٣١ بتصرف.

فأخذ معْوَلَه وضَرَبَها؛ محاولاً تفتيتها طبقًا للسُّنن الجارية في الحيـــاة، وكلُّه أمل في نصر الله لهم؛ فأكرمه اللهُ إكرامًا عظيمًـــا وأراه آيـــةً جليلةً؛ وهي البشرى بفتح بلاد فارس والرُّوم للمسلمين وســـقوط الباطل وأهله (١).

إنَّ قيمةَ الاقتداء وفائدتَه وعطاءَه وعظيمَ ثوابه إنَّما يكـــون في العزائم والقضايا الكبيرة التي قد يُمتحن صاحبُها في صـــدق إيمانـــه وقوَّة يقينه؛ فتفوتُه بعضُ النَّتائج في الدُّنيا ويخسر المعركـــة؛ لكـــن الاقتداءَ يحميه ويحول بينه وبين السُّقوط، ويرتفع به من الوقوف عند النَّتائج القريبة إلى إبصار العواقب والمآلات؛ ذلك أنَّ نقطةَ الارتكاز في الاقتداء هي رجاءُ الله واليوم الآخر، واستمرار الذِّكر الذي يجلِّي هذه الحقيقةَ ويؤكِّد حضورَها واستمرارَها (٢).

وتظهرُ أهميَّةُ السِّيرة النَّبويَّة في التَّكامـــل والشُّـــمول في فهـــم النُّصوص الشَّرعيَّة، وضرورة الاقتداء والتَّأسِّي بالرَّسول ﷺ في كلِّ جوانب الحياة، والتَّعامُل مع نصوصها الصَّحيحة الثَّابتة بكلِّ تقدير واحترام؛ وقد يَسَّرَ اللهُ لهذه السِّيرة مَن يقوم على حفظها والعنايـــة بأدقِّ تفاصيلها؛ حتَّى كأنَّك تنظر إلى صاحبها وأحواله رأيَ العين، والتاريخ شاهدٌ على أنَّه ليس في الدُّنيا أحدٌ يصحُّ أن تكون ســـيرتُه من الوضوح والكمال والصِّدق غير سيرة محمد ﷺ وحياته.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٣٠٣ من حديث البراء بن عازب، وله شاهد في صحيح البخاري من حديث جابر، كتاب المغازي حديث رقم ٤١٠١، وقال الحافظ في الفتح ٧/ ٣٩٧: إسناد حديث أحمد حسن

(٢) عمر عبيد حسنة، مرجع سابق ص ٣١.

يقول الأستاذ سليمان النَّدويّ: «إنَّ حياةَ العظيم الذي يجـدر بالناس أن يتَّخذوا منها قدوةً لهم في الحياة ينبغي أن تتوفَّرَ فيها أربعُ خصال:

١- أن تكون تاريخيَّةً؛ أي أنَّ التَّاريخَ الصَّحيحَ الممحِّصَ يصدِّقُها ويشهد لها.

٢- أن تكون جامعةً؛ أي محيطةً بأطوار الحياة ومناحيها وجميع شؤونها.

٣- أن تكون كاملةً؛ أي تكون متسلسلةً لا ينقص فيها شيء من حلقات الحياة لذلك العظيم.

٤- أن تكون عمليَّةً؛ أي أنَّ الدَّعوةَ إلى الفضائل والمبادئ والواجبات بعمل الدَّاعي وأخلاقه لا بمجرَّد قوله، وأن يكونَ كلُّ ما دعا إليه بلسانه قد حقَّقَه بسيرته وعمل به في حياته الشَّخصيَّة والعائليَّة والاجتماعيَّة؛ وبهذا تكون أعمالُه مثلاً عليًّا للنَّاس يتأسّون بها»[1].

وسيرةُ النَّبيِّ ﷺ ليست مجرَّدَ حوادث تاريخيَّة تؤخَذُ منها العبر والعظات فحسب؛ وإنَّما هي فوق هذا كلِّه؛ إنَّها تجسيدٌ عمليٌّ للوحي الذي يقتدى به، وهي منهج سليم واضح يهتدى بهداه، وصراط مستقيم يُسلك ويُتَّبع؛ لأنَّها منهجٌ معياريٌّ غيرُ خاضع لحدود الزَّمان والمكان؛ بل تقاس إليه الأعمال والمواقف، وتعاير عليه

---

(١) سليمان الندوي، الرسالة المحمدية ص ٦٨.

الاجتهادات والآراء، وتوزن بميزانه الحقِّ.

يقول الدكتور فاروق حمادة: «السيرة النَّبوية تجسيدٌ حيٌّ لتعاليم الإسلام كما أرادها الله تعالى أن تُطبَّقَ في عالم الواقع؛ فتعاليمُ الإسلام لم تنزل لتُحْصَرَ بين جدران المساجد وداخل أروقة بيوت العلم الشَّرعيِّ وكليَّاته؛ بل تنزَّلت من الحكيم العليم لتكون سلوكًا إنسانيًّا ومنهجًا حياتيًّا يعيشها الفردُ المسلم في نفسه وشخصه، ويدركها في واقعه ومجتمعه، ويشبُّ عليها؛ فتصبحَ جزءًا لا يتجزَّأُ من كيانه، يتصرَّف على هديها في كلِّ صغيرة وكبيرة، وفي كلِّ موقف وشأن؛ فالمبدأُ النَّظَريُّ يُرى ماثلاً قائمًا في شخص صاحبه؛ وهذا ما نجده في السِّيرة النَّبويَّة؛ حيث كان رسول الله ﷺ يجسِّم تعاليمَ الإسلام كما أرادها اللهُ تعالى أن تُطَبَّقَ في عالم الأحياء والبشر.

وذلك في جميع أحواله وظروفه؛ نومًا ويقظةً، سلمًا وحربًا، جدًّا ومداعبةً، غضبًا ورضًا، فردًا وجماعةً؛ فإذا ما فارق التَّربيةَ الإلهيَّةَ قيدَ أَنْمُلَة جاءه التَّصحيحُ والتَّنبيه والتَّعليم من الله عز وجل كما في حادثة ابن أمِّ مكتوم وغيرها».[1]؛ ولهذا لم تجد أمُّ المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- حين سُئلت عن أخلاق رسول الله ﷺ وأحواله وأوضاعه كلمةً أدقَّ وأبلغَ من قولها للسَّائل: «ألم تقرأ القرآن؟! كان خلُقُه القرآن»[2].

(١) مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص ٢٠.

(٢) أخرجه مسلم من حديث سعد بن هشام بن عامر، عنها، حديث رقم ٧٤٦، وأحمد في المسند ٦/ ١٨٨، من حديث جبير بن نفير عنها، ويعقوب بن سفيان في

وتَظْهَرُ شخصيَّةُ النَّبيِّ ﷺ من خلال السِّيرة النَّبويَّة في الصُّورة المشرقة للإنسان الذي يمارس إنسانيَّته بكلِّ أبعادها، ويتفاعل مع الواقع بكلِّ معطياته، وندرك أنَّ محمدًا ﷺ سيد البشر – بكل نوازع البشر – قد تربَّع قمَّةَ التَّسامي الإنسانيّ، وهو المثل الأعلى الحقّ للبشريَّة جميعًا؛ كما يدرك الدَّارس للسيرة النبوية التَّلازُمَ والتَّطابقَ الذي لا ينفصم بين القول والعمل، والمبدأ والسلوك؛ فلا يأمر الناس بالبرِّ وينسى نفسَه؛ بل هو أوَّلُ ملتزم ومطبِّق للأمر ولو كان وحده.

ولقد اهتدى بهذه السِّيرة الكريمة العطرة واستدل بها على صدق نبوته ورسالته عدد غير قليل في حياته وبعد وفاته ﷺ من العظماء والكبراء وآحاد النَّاس وعامَّتهم؛ ومنهم الجلنديّ ملك عمان[1]؛ فقد قال لعمرو بن العاص عندما جاءه برسالة من النَّبيِّ ﷺ: والله لقد دلَّني على صدق هذا النَّبيِّ الأمِّيِّ أنَّه لا يأمر بخير إلا كان أولَ آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أولَ تارك له، وأنَّه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يهجر، ويفي بالعهد، وينجز الوعد، وأشهد أنه نبي [2].

فهذه القمَّةُ الرَّفيعةُ من الإنسانية في شخص محمد ﷺ والتي

المعرفة والتاريخ ٣/ ٣٦١ من حديث أبي الدَّرداء عنها.

(١) الجلندي – بضمِّ أوَّله وفتح اللام وسكون النون وفتح الدال – ابن عبد جمل الأزدي ملك عمان زمن البعثة النبوية، وخلفه من بعده ابنه جيفر، انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر ١/ ٥٣٨.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٥٣٨ ونسبه عن وثيمة في كتاب الردة عن ابن إسحاق.

كانت تدرج على الأرض وتسير في فجاجها، عندما تُقَدَّمُ للإنسان على اختلاف زمانه ومكانه ودينه ولغته تقديمًا صحيحًا غيرَ مشوبة بأساطير وخرافات المحبِّين الجاهلين، وغيرَ مشوَّهة بتحليلات الجاحدين والمنكرين؛ بل تُقَدَّم حَيَّةً نابضةً يراها القارئ وكأنَّه يعيش أحداثها دون حجب التَّعصُّب، أو غشاوة العاطفة الجاهلة- لا شَكَّ أنَّها ستستهوي القلوبَ، ويرى فيها أيُّ شخص إنسانيَّتَه التي يَحنُّ إليها؛ لأنَّ النُّفوسَ السَّليمةَ جُبلَتْ على التَّسامي والتَّعَلُّق بالمثل الأعلى؛ وقد كان في قدر الله أن يكون محمدٌ ﷺ مظهرًا للكمال الإنسانيِّ، وطلب من الناس أن يسعوا إليه ويحاولوا التَّخَلُّقَ بأخلاقه ومحاكاة سلوكه؛ لأنَّ هذه هي الأخلاق المرضيَّة الكاملة عند الله تعالى[1].

إنَّ قراءةَ السِّيرة النَّبويَّة بحاجة إلى نظام معرفيٍّ واضح المعالم مستمَدٍّ من القيم والمعايير التي جسَّدها السِّيرةُ في واقع الناس، ومنهج القراءة يجب أن يراعي الأمور الآتية:

١- هداية الوحي والاستمداد منه.

٢- خلود الرسالة وخاتمتها للأديان الإلهية.

٣- مقاصد الدين.

٤- عصمة النبوة وحفظ للرسول ﷺ من الخطأ في البلاغ عن الله.

(١) انظر: مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص ٢١ – ٢٣ (بتصرف يسير).

٥- سلامة النقل.

٦- دراية العقل.

وهذا النظام المعرفيُّ مطلوبٌ اليومَ أكثرَ من أيِّ وقت مضى؛ حيث إنَّ الأمَّةَ تعاني على أكثر من صعيد في الجانب العقديِّ والفكريِّ والجانب السِّياسيِّ والاقتصاديِّ والجانب التَّربويِّ والثَّقافيِّ.

ومسيرة السِّيرة النبوية خلال ثلاث وعشرين سنة بين الدَّعوة والدَّولة ومرحلة الضَّعف ومرحلة التَّمكين حتى وصلت إلى مرحلة الكمال والاكتمال- والتي تمَّ خلالها بناء نموذج الاقتداء الذي استوعب أصول الحالات التي يمكن أن تمرَّ بها البشريَّة حتى قيام الساعة- بحاجة إلى قراءة صحيحة وفقَ المنهج المذكور أعلاه، وسوف يَخرج الدَّارسُ بحلول عمليَّة لكلِّ المشكلات التي تواجه الأمَّةَ بشرط أن يتوفَّر للدِّراسة:

١- الدِّقَّة في قراءة الواقع الذي عليه الناس.

٢- الإحاطة بهذا الواقع من خلال متخصِّصين لا متحمِّسين فحسب.

٣- تحليل الواقع بدقَّة وموضوعية.

٤- تفسير وتحليل أحداث السِّيرة النَّبويَّة وفقَ المنهج المعرفيِّ الإسلاميِّ.

٥- تحديد موقع الاقتداء من مسيرة السِّيرة النَّبويَّة، ومعرفة

المرحلة التي تمثِّل حالةَ الاقتداء.

٦- بيان كيفيَّة الاقتداء من خلال ظروف الحال التي عليها النَّاس وطبيعة أقدار التَّدَيُّن صعودًا وهبوطًا [(١)].

وإنَّ قراءةَ السِّيرة النَّبويَّة بأنظمة معرفيَّة مستوردة من الخارج رأسماليَّة واشتراكية، علمانية وقومية، أو مستنبَتة في الدَّاخل من أصحاب الأهواء والفرق المنحرفة التي ظهرت على امتداد التَّاريخ الإسلاميّ يؤدِّي إلى تقطيعها والانتقاء من أحداثها، وفصلها عن نسقها المعرفيّ وسياقها ومناسباتها؛ وهذا نتيجة طبيعيَّةٌ للانحراف العقديّ والتَّخاذل الثَّقافيِّ، وتصبح السِّيرة النَّبوية والتُّراث الإسلاميُّ بصفة عامة مدخلاً أو معبرًا للغزو الفكريِّ الذي يحاول إضفاءَ المشروعيَّة والقبول على انحرافه في الدَّاخل الإسلاميِّ [(٢)].

النِّطاقُ الزَّمانيُّ للسِّيرة النَّبويَّة:

البعثةُ المحمديةُ هي خاتمة الرِّسالات كما قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ورسالته رسالةٌ عامَّةٌ لجميع الإنس والجن؛ كما أنَّ شريعتَه ناسخةٌ لجميع شرائع الرُّسُل؛ فلا يَقبل اللهُ من أحد غيرَ شريعته ﷺ؛ وهي تأتي حسبَ تاريخ النُّبوَّات آخر النبوات.

(١) انظر: عمر عبيد حسنة، مرجع سابق، ص ٢٦، ٢٧ بتصرف.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٢٦ بتصرف.

والسِّيرةُ النَّبويَّةُ في نطاقها الزَّمانيِّ تشمل الفترةَ من ولادته ﷺ عامَ الفيل وحتَّى وفاته في الثَّاني عشر من شهر ربيع الأوَّل من السَّنة الحادية عشرة من الهجرة النَّبويَّة، وجملتُها ثلاث وستُّون سنة قمريَّةً، وتوافقها في التَّاريخ المسيحيّ الفترة (٥٧١م – ٦٣٢م) [(١)].

والنُّبوَّاتُ جميعًا تمثِّل وحدةً تاريخيَّةً واحدةً ذات حلقات متعدِّدة، والأنبياء وأتباعُهم أمَّةٌ واحدة لها سمات مشتركةٌ، والتَّاريخ الإسلاميُّ ليست بدايته من بعثة محمد ﷺ كما قد يظنُّ البعض؛ وإنما بدايته الحقيقية من هبوط آدم وحوَّاء إلى هذه الأرض مسلمين لله ربِّ العالمين؛ فإنَّ آدمَ أبا البشر – عليه الصلاة والسلام – «نبيٌّ مكلَّمٌ»[(٢)]، واستمرَّت ذريَّتُه عشرةَ قرون كلّهم على التَّوحيد، كما ثبت بذلك الخبرُ عن ابن عبَّاس – رضي الله عنه[(٣)].

ثمَّ لَمَّا وقع الانحرافُ في التَّوحيد وظهر الشِّركُ في البشريَّة بعث اللهُ نوحًا عليه الصَّلاةُ والسلامُ ليجدِّد معالَمَ التَّوحيد ويعيدَ المشركين إلى الحقِّ، ثم تتابعت الرُّسُلُ والأنبياء يدعون إلى عبادة الله وحدَه واجتناب الطَّاغوت؛ كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦].

(١) راجع التقويمين الهجري والميلادي، تأليف فريمان، وجرنفيل، ترجمة حسام الدِّين الألوسي.

(٢) الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح ٣/ ١٢٧٥ حديث رقم ٥٧٣٧، وقال: رواه أحمد. وصححه الشيخ الألباني في تعليقه على المشكاة.

(٣) رواه ابن جرير في التفسير ٤/ ٢٧٥، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٤٦ وصححه، وانظر: تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ**﴾ ١/ ٣٦٤.

فأصلُ الدِّين واحدٌ؛ وهو التَّوحيدُ الذي هو إفرادُ الله بالعبادة؛ أمَّا الشَّرائع فهي متنوِّعةٌ كما قال- عليه الصَّلاة والسَّلام: «**أنا أولى الأنبياء بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة، الأنبياء أخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وليس بيننا نبي**»[1]، ومنذ وقوع الشَّرع في القوم الذين بُعث إليهم نوح- عليه الصلاة والسلام- انقسمت البشريَّةُ من حيث العقيدة إلى أمَّتَين اثنتين:

- أمَّة مسلمة موحِّدة.

- أمَّة كافرة مشركة.

وكلٌّ الذين صَدَقوا الرُّسَلَ واتَّبعوهم من آدم- عليه الصَّلاة والسَّلام- إلى محمَّد ﷺ هم المسلمون، ويمثِّلون أمَّةً واحدةً وإن اختلفت أوطانُهم ولغاتُهم وتباعدت أزمانُهم؛ كما قال- تعالى- بعد ذكر جملة من الأنبياء: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٩٢]؛ فأتباعُ الرُّسُل أمَّةٌ واحدةٌ هي أمَّةُ التَّوحيد وحزب الرَّحمن وأهل الحقِّ والإيمان؛ وهم المسلمون.

أمَّا الذين كذَّبوا الرُّسُل فهم أمَّةُ الكفر والضَّلال، وهم حزبُ الشَّيطان، وهم أمةٌ واحدةٌ مهما اختلفت أوطانهم ومذاهبهم وأزمانهم؛ فإنَّ السِّمةَ الجامعة لهم هي الشِّرك وعبادة غير الله.

وهذا المفهوم يوضِّح منزلةَ السِّيرة النَّبويَّة بين سير الأنبياء- عليهم الصَّلاة والسلام- وأهمِّيَّةَ دراستها؛ وإن كان نطاقُها الزَّمانيُّ

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء حديث رقم ٣٤٤٣، والأخوة من علات: هم أبناء الرجل الواحد من نساء شتى.

محدودًا بحياة النَّبيِّ ﷺ من الولادة حتى الوفاة؛ فهي امتـــداد لســـير الأنبياء قبلَه، واستمرار لتاريخ أمة الإسلام المهتدين بهديه من بعـــده حتى قيام الساعة.

النطاق المكاني للسيرة النبوية:

بعث النبي ﷺ في مكة بلد الله الحرام، وفيها بيتُه المعظَّم الـــذي رفع قواعدَه إبراهيمُ الخليل وابنُه إسماعيل جدُّ العرب، والنبيُّ ﷺ من أهلها وقد ولد ونشأ فيها ومكة يومئذ حاضرةُ الجزيـــرة العربيـــة الكبرى ولها مكانة دينية عندهم؛ حيث يحجُّون إليها كلَّ عـــام، ثم هاجر ﷺ إلى المدينة النَّبويَّة بعد ثلاث عشر سنة من النُّبُوَّة، وفيهـــا أسَّسَ بناء دولة الإسلام، وابتداء الجهاد حتى فتح مكَّةَ وما حولهـــا، ثمَّ أَتَتْه الوفودُ مسلمةً ومستسلمةً في العام التَّاسع من الهجـــرة، ولم يَنتقل إلى الرَّفيق الأعلى حتى كانت الجزيرةُ كلُّها خاضعةً لســـلطان الإسلام، وأهلها إمَّا مسلمون، وإمَّا معاهدون مسالمون.

والرسولُ ﷺ هو أوَّلُ مَن جمع الجزيرةَ العربيـــةَ بكاملـــها في وحدة واحدة؛ وحدة فكريَّة عقديَّة، ووحدة سياســـيَّة جغرافيَّـــة؛ وحدة على ملة الإسلام ودين التَّوحيد، وكانت قبلَ ذلك طـــوالَ تاريخها إمارات ودولاً متفرِّقةً؛ ففي اليمن كانت دولـــة معـــين، ثم دولة سبأ، ثم حمير، ثم استعمرهم الأحباشُ، ثم دخل عليهم الفـــرسُ وصارت الولايةُ في أبنائهم، وفي شمال الجزيرة كانت في وقت البعثة إمارات الحيرة والغساسنة الخاضعة للفرس والروم.

أما الحجازُ فَتَوَلَّى أمرَها إسماعيلُ بعدَ بناء البيت ثم أولادُه مـــن

بعده، ثم جدُّ أولاد إسماعيل مضاض بن عمرو الجرهمي، وطالت ولايةُ جرهم للبيت حوالي عشرين قرنًا، ثم نزعتها منهم خزاعة فحكمتْها ثلاثمائة سنة حتى انتزعها قصيٌّ بن كلاب، وجمع قريش في مكَّة وما حولها؛ وذلك في منتصف القرن الخامس الميلاديِّ[(١)]؛ فالجزيرة العربية هي النِّطاق المكانيّ لحركة السِّيرة النَّبويَّة في عهده ﷺ.

وبعد وفاته ﷺ حدثت ردَّةٌ في الأطراف والقرى؛ ولكن تمكَّن أصحابُه الكرام بقيادة خليفته الأوَّل أبي بكر الصِّدِّيق- رضي الله عنه- من قمع المرتدين وإعادتهم إلى الهدى ودين الحقِّ في أقلّ من عام واحد، ثم انطلقوا بالدَّعوة والفتوحات إلى مَن يليهم من أهل الأرض مشرقًا ومغربًا حتى دانوا بالإسلام، وخضعوا لشريعته وأحكامه كما هو معلوم من سير الفتوحات الإسلاميَّة التي استمرَّت في انطلاقتها طوالَ القرن الأوَّل من الهجرة؛ فوصلوا إلى حدود الصِّين شرقًا، وإلى المحيط الأطلسيِّ وحدود فرنسا غربًا، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

والكرةُ الأرضيةُ بكاملها مجالٌ لنشر الإسلام، وأهلها مدعوُّون جميعاً للدُّخول في الدِّين الحقِّ الذي ارتضاه المولى- عزَّ وجلَّ- دينًا للبشريَّة جميعًا كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي السيرة النبوية، ص ٨٣.

وقد راسل النَّبيُّ ﷺ ملــوكَ الأرض في زمانــه ودعــاهم إلى الدُّخول في الإسلام؛ تنفيذًا لعالميَّة الدَّعوة الإسلاميَّة؛ كمــا قــال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًــا**﴾ [الأعــراف: ١٥٨]؛ فالرِّسالةُ المحمديَّةُ رسالةٌ عالميَّةٌ لكلِّ الأجناس البشريَّة؛ فكما أنَّ الأرضَ كلَّها نطاقٌ مكانيٌّ لحركة الجهاد والدَّعوة على أيــدي أتباعه ﷺ فكذلك البشر كلُّهم على مختلَف أجناســهم وأزمــانهم مدعوُّون للدُّخول في الدِّين الحقِّ الذي هو الإسلام؛ وهو رحمةٌ لهم ومنقذ لهم من الضَّلالات والخرافات والأهواء والظُّلــم والجَــوْر؛ لتُشرق عليهم أنوارُ الحقِّ والعدل والطُّمَأْنينة، وتتحقَّقَ لهم الإنسانيَّةُ الصَّادقةُ والفطرة السَّليمةُ التي فَطَرَ اللهُ الخلقَ عليها؛ قــال تعــالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَــا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠].

أقسام السِّيرة النَّبويَّة:

السِّيرةُ النَّبويَّةُ إذا نظر إليها من حيث الزَّمن (من الولادة حــتى الوفاة) فإنَّها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من الولادة حتى البعثة؛ وتمثِّل أربعــين ســنة، ويدرس في هذا القسم حالُ العرب والجزيرة قبل بعثــة الــنَّبيِّ ﷺ، والأطوار التي مرَّت بها مكَّةُ المكرَّمة وبناء البيت العتيق؛ فإنَّها بيئــةُ السِّيرة النَّبويَّة وتمهيد لها- والأحداثُ المتعلِّقة بالنَّبيِّ ﷺ قبل البعثــة؛

وهي في القسم قليلةٌ محدودةٌ.

القسم الثاني: من البعثة ونزول الوحي عليه ﷺ في غار حـــراء حتى هجرته إلى المدينة، وتمثِّلُ ثلاثة عشر عامًا، ويسمَّى العهدَ المكِّيَّ وعهدَ التَّأسيس والدَّعوة؛ وفيها نزولُ القرآن المكِّيِّ الذي قرَّر دلائلَ التَّوحيد وصفات الباري وكَشَفَ الشِّـــركَ ورَدَّ علـــى دعـــاوى المشركين، وإثبات البعث والنُّشور والجزاء في اليوم الآخر بجنـــة أو نار، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والانتهاء عن المساوئ.

وفيها الدَّعوةُ الفرديَّةُ المباشرةُ ثمَّ الدَّعوةُ العامَّـــةُ، ومواقـــف المشركين واضطهادهم للمؤمنين، وصبر المؤمنين وتحمُّلُهـــم الأذى وهجرتُهم إلى الحبشة، وحصارُ رسول الله ﷺ والمؤمنين وبني هاشم في الشعب، والعرض على القبائل، وحادثة الإسراء والمعراج، وبيعة العقبة الأولى ثم الثانية، والهجرة إلى المدينة.

القسم الثالث: من وصوله إلى المدينة في ١٢ ربيع الأول سنة ١هـ وحتى الوفاة في ١٢ ربيع الأوَّل سنة ١١هـ؛ وتمثِّلُ عشر سنوات كاملة، ويسمَّى العهدَ المدنيَّ، وعهد البناء والجهاد وانتشار الدعوة، وسمَّتْه العامَّةُ الجهادَ والغزوات التي بلغت ثلاثين غـــزوة، والســـرايا والبعوث الدعوية التي زادت على السَّبعين سريَّةً وبعثًا؛ حتى انتشر الإسلامُ وعمَّ أرجاءَ الجزيرة العربيَّة؛ وكذلك نـــزولُ التَّشـــريعات وتنظيمات المجتمع الإداريَّة والسِّياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وأيضًا تُقَسَّمُ السِّيرةُ بالنَّظر إلى موضوعاتها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الشَّمائل والأخلاق النَّبويَّـــة؛ ويـــدخل فيهـــا

الخصائص التي اختصَّ بها رسولُ الله ﷺ عن سائر الرُّسُل؛ وكذا ما اختصَّ به من أحكام من سائر الأمة، وما اختصَّتْ به أمَّتُه بسببه عن سائر الرُّسُل، وكذا ما اختصَّ به من أحكام من سائر الأمَّة، وما اختصَّت به أمَّتُه بسببه [1].

والشَّمائلُ على نوعين:

النوعُ الأوَّلُ: الصِّفات الخَلْقيَّةُ؛ أي الصِّفة التي خَلَقَه اللهُ عليها من حيث طوله وهيئة جسمه ولونه.. وكذا صفة جلوسه ومشيته وكلامه ونومه ولباسه؛ وهذا النَّوعُ ترجع فائدةُ دراسته إلى أمور؛ منها:

* التَّأَسِّي به في هيئة جلوسه وقيامه وكلامه ونومه ولباسه.. إلخ.

* معرفة فضل الله على رسولنا ﷺ؛ إذ جعلَه اللهُ في أكمل هيئة وأحسن صورة وأجمل سمت.

* في معرفة صورته التي خلقه الله عليها؛ كما نقلها الواصفون له من الصَّحابة- رضوانُ الله عليهم- فائدة؛ وهي: مطابقةُ ما يرى النَّائمُ عند رؤيته لرسول الله ﷺ بهذه الصِّفة المنقولة عن الرُّواة من أصحابه؛ فإنَّ الشيطانَ لا يستطيع أن يَتَصَوَّرَ أو يَتَشَبَّهَ برسول الله ﷺ كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة وأنس- رضي الله عنهما- وغيرهما عن رسول الله ﷺ؛ أنَّه قال: «**من رآني في**

(١) انظر: ابن كثير، الفصول في سيرة الرسول، ص ٢٧٩ – ٢٨١.

المنام فقد رآني؛ فإنَّ الشيطانَ لا يَتَمَثَّلُ بي» [١].

وَلْتَعْلَمْ أخي أنَّ الشَّيطانَ من عادته الكذبُ والتَّغريرُ بمن يُطيعه، وقد يرى النَّائمُ صورةً ويلقى في روعه أنَّها صورة رسول الله ﷺ وهو كاذب عليه؛ لكن إذا رأى المسلمُ في المنام أنَّه رأى رسول الله ﷺ؛ فإنَّه لابدَّ أن يُطابقَ ما رأى على الصِّفة المنقولة لرسول الله ﷺ؛ فإنَّ الشَّيطانَ لا يَستطيعُ التَّشَبُّهَ بالنَّبيِّ على صورته الحقيقيَّة؛ وهذا من حماية الله لرسوله وتكريمه له، وصيانة المسلمين من تغرير الشَّيطان بهم.

النَّوعُ الثَّاني: الصِّفاتُ الخُلُقيَّة؛ أي الآداب والأخلاق التي تأدَّب بها رسولُ الله ﷺ؛ وهذه الصِّفاتُ كثيرةٌ؛ منها: الكرم، والشجاعة، والحياء، والعفو، والحلم، واليسر، والسَّماحة، والتَّقوى، والبذل، والعطاء، والتَّواضع، والزُّهد؛ وهي صفات أتت بها الشَّريعةُ وتَحَلَّى بها رسولُنا ﷺ؛ وهذا النَّوعُ هو المقصودُ الأعظمُ من دراسة الشَّمائل؛ وهو أكثرُ فائدةً وأوسعُ دائرةً في التَّأَسِّي والاتِّباع والاقتداء.

لقد سئلت أمُّ المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- من عدد من الصَّحابة والتَّابعين عن خُلُق رسول الله ﷺ فكان جوابُها شاملاً واسعًا رغمَ وجازة لفظه؛ قالت: «كان خُلُقُه القرآنَ» [٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب من رأى النبي في المنام برقم ٦٩٩٣ — ٦٩٩٧ من عدة طرق، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا برقم ٢٢٦٦، ٢٢٦٨.

(٢)سبق تخريجه ص ١٩.

قال الحافظُ ابنُ كثير: «ومعنى هذا أنَّه ﷺ مهما أمره به القرآن امتثله ومهما نهاه عنه تركه؛ هذا مع ما جَبَلَه اللهُ عليه من الأخلاق الجبلِّيَّة الأصليَّة العظيمة التي لم يكن أحد من البشر ولا يكون على أجمل منها، وشرع له الدِّينُ العظيم الذي لم يشرِّعه لأحد قبله؛ فكان فيه من الحياء والكرم والشَّجاعة والحلم والصَّفح والرَّحمة وسائر الأخلاق الكاملة ما لا يُحَدُّ ولا يمكن وَصْفُه»[١].

وقد وَصَفَه ربُّه- سبحانه وتعالى- بوصف هو فوقَ كلِّ وصف، ومدحه بمدحة هي فوقَ كلِّ مدحة أحد، فقال: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤]؛ قال العوفيُّ عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما: أي: وإنَّكَ لعلى دين عظيم؛ وهو الإسلام. وهكذا قال مجاهد والسّدّيّ والضَّحَّاك، وقال عطية: لعلى أدب عظيم[٢]، وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

أمَّا الخصائصُ النَّبَويَّةُ فإنَّ معرفتَها أمرٌ له فائدة؛ وهي معرفةُ ما أكرم الله به رسولَه واختصَّه به من الفضائل والأحكام، وقد نقل الحافظُ ابنُ كثير عن بعض علماء الشَّافعيَّة أنَّهم قالوا: لا فائدةَ من دراسة الخصائص. ثمَّ نَقَلَ عن الإمام النَّوويِّ أنَّه ردَّ ذلك وقال: الصَّوابُ جوازُ البحث فيها، بل استحبابه، ولو قيل بوجوبه لم يكن ذلك بعيدًا، وقال: ربما رأى جاهل بعض الخصائص ثابتًا في

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٤٥٦.

(٢) المصدر نفسه ٨/ ٤٥٥.

الصحيح فيعمل به آخذًا بأصل التَّأَسِّي؛ فوجب بيانُها لتعرفَ، وقد ذَكَرَ ما اختصَّ به عن سائر الرُّسُل وكذا ما اختصَّ به عن أمَّته في مسائل الإيمان، ثم ذَكَرَ جملةً من الخصائص مرتَّبةً على الأبواب الفقهيَّة (١).

القسم الثاني: دلائلُ النُّبوَّة: وهي من أهمِّ أقسام السِّيرة وأنفعها في تقوية الإيمان وتثبيته وزيادة المحبَّة لرسول الله ﷺ، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزَجَرَ، وأنَّه رسولُ ربِّ العالمين حقًّا وصدقًا؛ ولا يُعْبَدُ اللهُ إلَّا بما شَرَّعَ.

والدَّلائلُ هي المعجزات والبراهين الدَّالَّةُ على صدقه في النُّبُوَّة والرِّسالة؛ ودلائلُ النُّبُوَّة منها المعنويُّ، ومنها الحسِّيُّ الخارق للعادة، ويسمى معجزة ودليلاً وبرهانًا وآية من الآيات.

والدَّلائلُ التي يؤيِّدُ اللهُ بها رسلَه ويجري بعضها على أيديهم ليست من كَسْبهم ولا قدرتهم الذَّاتيَّة؛ وإنَّما هي محضُ فضل من الله وهبة منه؛ لتكون تأييدًا وتصديقًا لهم وبيانًا لمنزلتهم عنده، ومن سنَّة الله- سبحانه وتعالى- أنَّه لا يؤيِّد الكذَّابَ عليه، وقد باء بالخزي والخذلان كلُّ من ادَّعى النُّبوَّةَ من الكذَّابين؛ مثل: الأسود العنسيّ، ومسيلمة الكذَّاب، والمختار بن أبي عبيد، وغيرهم؛ قال تعالى: **﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾** [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

(١) الفصول في سيرة الرسول، ص ٢٨٠ وما بعدها.

ودلائلُ نبوَّة نبيِّنا محمد ﷺ كثيرةٌ جدًّا، وقد ذكرَ الإمامُ البيهقيُّ أنَّها تزيد على ألف دليل[١]، كما ذكر النَّوويُّ في مقدِّمة شرح صحيح الإمام مسلم أنَّها تزيد على ألف ومائتي دليلاً [٢].

والدلائلُ تنقسم بحسب وقوعها إلى أقسام:

١- ما وقع قبلَ البَعثة؛ مثل بشارات الأنبياء به في الكتب السَّابقة [٣]، وأخبارُ الكُهَّان والجان [٤]، وتسليم حجر عليه بالنُّبوَّة في مكَّة [٥]، وشُقَّ صدرُه وهو في بادية بني سعد [٦].

٢- ما وقع على يديه ﷺ بعد البعثة حتى توفَّاه الله، ومن أعظم ذلك نزولُ الوحي بهذا القرآن العظيم على الرَّسول الأُمِّيِّ الذي لا يَعْرف القراءةَ والكتابةَ، ومثل نزول المطر بعد دعائه مباشرةً [٧]، ونبع الماء بين أصابعه [٨]، ودعائه في الماء القليل فيكون كثيرًا [٩]، وحنين الجذع عندما ترك الاستناد إليه [١٠]، وانقياد الأشجار

---

(١) دلائل النبوة ١/ ٦٠.
(٢) انظر: ١/ ٢.
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٤٨٣٨).
(٤) المصدر نفسه حديث رقم (٣٨٦٦).
(٥) المصدر نفسه حديث رقم (٢٢٧٨).
(٦) المصدر نفسه حديث رقم (٢٦١).
(٧) المصدر نفسه حديث رقم (٣٥٨٢).
(٨) المصدر نفسه حديث رقم (٣٥٧٣).
(٩) المصدر نفسه حديث رقم (٣٥٧٤ - ٣٥٨٥).
(١٠) المصدر نفسه حديث رقم (٣٥٧٤ - ٣٥٨٥).

والبهائم لأمره ﷺ[١]، وشهادة الذئب ببعثته ونبوته[٢]، وانشقاق القمر نصفين عندما طلبت قريش آيةً حتى رأوا ذلك[٣]، وتحقُّق وعد الله له بهزيمة المشركين في بدر؛ قال- تعالى- في سورة القمر المكِّيَّة: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥].

وخرج رسولُ الله ﷺ من العريش يوم بدر وهو يتلو هذه الآيات، وأخبر ﷺ بمصارع القوم في بدر، وقال لأصحابه: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان». فما جاوز رجلٌ منهم مصرعَه[٤]، وأخبر عن مقتل أمراء مؤتة قبل أن يأتي الخبرُ بمقتلهم[٥].

٣- ما وقع بعد وفاته ﷺ ممَّا أخبر أنَّه سيقع فوقع كما أخبر؛ فقد أخبر ﷺ عن فتح الحيرة وبلاد فارس وكثرة المال؛ ففي صحيح البخاريِّ عن عديّ بن حاتم قال: بينا أنا عند النَّبيِّ ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه فاقةً، ثمَّ أتاه آخرُ فشكا إليه قطعَ السَّبيل، فقال: «**يا عيد بن حاتم هل رأيت الحيرة؟**» فقلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها. قال: «**فإن طالت بك حياةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعينةَ ترتحل من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله**». قلت- فيما بيني وبين

---

(١) سنن ابن ماجة، حديث رقم (٤٠٢٨)، وقال في الزوائد: إسناده صحيح.

(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ص ٥١٩.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٣٦٣٦ – ٣٦٣٨)، وصحيح مسلم حديث رقم (٢٨٠٠ – ٢٨٠٣).

(٤) صحيح البخاري حديث رقم ٤٨٧٦.

(٥) المصدر نفسه حديث رقم ٤٢٦٢.

نفسي: فأين دُعَّارُ [١] طَيِّءِ الذين سَعَّروا البلاد؟ «**ولئن طالت بك حياة لَتَفْتَحَنَّ كنوزَ كسرى**». قلت: كسرى بن هرمز!! قال: «**كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك الحياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه، وَلَيَلْقَيَنَّ اللهُ أحدَكم يومَ يلقاه وليس بينَه وبينَه تُرجمان يترجم له فيقول: ألم أرسل إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم**». قال عديّ: سمعت الرَّسولَ يقول: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**».

قال عديّ: فرأيتُ الظَّعينةَ ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوزَ كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونَّ ما قال النَّبيُّ أبو القاسم ﷺ: «**يخرج ملءَ كفِّه...**»[٢].

قال الحافظُ ابنُ حجر عند شرح هذا الحديث: تَقَدَّمَ في الزَّكاة قولُ من قال: إنَّ ذلك عند نزول عيسى بن مريم؛ ويُحتمل أن يكون ذلك إشارةً لما وقع في زمن عمر بن عبد العزيز؛ وبذلك جَزَمَ البيهقيُّ، وأخرج في الدلائل من طريق يعقوب بن سفيان بسنده إلى

---

(١) دعار: جمع داعر، والداعر: الخبيث المفسد، والمراد هنا قطاع الطريق، النهاية في غريب الحديث والأثر مادة: (دعر) ٢/ ١١٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، حديث رقم ٣٥٩٥ (فتح الباري ٦/ ٦١٠).

عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: إنَّمـــا ولي عمرُ بنُ عبد العزيز ثلاثين شهرًا؛ لا والله ما مات حتى جعل الرجلُ يأتينا بالمال العظيم فيقول: «اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء. فما يَبْرَحُ حتى يرجعَ بماله يتذكَّر مَنْ يضعُه فيه فلا يجده، قد أغنى عمر النَّاسَ»[١]، ثم قال البيهقيُّ: فيه تصديق ما رويناه في حديث عـــديّ بن حاتم. ثم قال الحافظ: ولا شَكَّ في رجحان هذا الاحتمال علـــى الأَوَّل؛ لقوله في الحديث: «**ولئن طالت بك حياة**»[٢].

ومن ذلك إخبارُه أنَّ ابنتَه فاطمة هي أوَّلُ أهله لحاقًـــا بـــه[٣]، فوقع الأمر كما أخبر، وإخباره أنَّ زينب بنت جحش هي أســـرعُ زوجاته لحاقًا به[٤]؛ فوقع الأمرُ كذلك، وإخبارُه بقتل عمَّار- رضي الله عنه[٥]، وبصلح الحسن مع معاوية رضي الله عنهما[٦]، وإخباره بتقليد طائفة من أمَّته أعداءَ الإسلام؛ حتى لو دخلوا جحرَ ضـــبٍّ لدخلوه وراءَهم [٧]، وإخبارُه بتنافُس أمَّته في الدُّنيا حتى أهلكـــتْهم وفرَّقتْهم [٨]، وإخباره ببشارة عظيمة لهذه الأمَّة وهي: بقاء طائفـــة منصورة على الحقِّ إلى قيام السَّاعة[٩].

---

(١) دلائل النبوة ٦/ ٣٢٣، ٤٩٣.
(٢) فتح الباري ٦/ ٦١٣.
(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٣٦٢٦).
(٤) صحيح مسلم حديث رقم (٢٤٥٢).
(٥) صحيح البخاري حديث رقم (٤٤٧)، وصحيح مسلم حديث رقم (٢٩١٦).
(٦) صحيح البخاري حديث رقم (٢٧٠٤).
(٧) المصدر نفسه حديث رقم (٧٣١٩، ٧٣٢٠).
(٨) المصدر نفسه حديث رقم (٦٤٢٥، ٦٤٢٦)، وصحيح مسلم (١٠٥٢).
(٩) صحيح البخاري حديث رقم (٣٦٤٠، ٣٦٤١).

٤- ما لم يقع حتَّى الآن، ولكنَّه أخبر بوقوعه مستقبَلاً:

ومن ذلك أشراطُ السَّاعة التي أخبر بوقوعها و لم تقع حتى الآن، وكذا عود الجزيرة العربية مروجًا وأنهارًا، وخرابُ الكعبة، وخرابُ المدينة، وحسرُ الفرات عن جبل من ذهب، وخروجُ الدَّجَّال، ونزولُ عيسى- عليه الصَّلاةُ والسَّلام- وخروج يأجوج ومأجوج، والخسوف الثلاثة: بالمشرق، والمغرب، وجزيرة العرب، وخروج الدَّابَّة، وكلام السِّباع والجمادات للإنس[١].

وقد أخبر ﷺ عن فتح القسطنطينيَّة وروما كما في مسند الإمام أحمد ومستدرك الحاكم عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- وسئل: أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ قال: فدعا عبد الله بصندوق له حلق فأخرج منه كتابًا، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حولَ رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ: أيُّ المدينتين تفتَحُ أَوَّلاً أقسطنطينيَّة أو روميَّة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مدينة هرقل تفتح أولاً**». يعني: القسطنطينيَّة[٢].

قلت: وقد تحقَّقَ الفتحُ الأَوَّلُ للقسطنطينيَّة على يد السُّلطان

---

(١) انظر: يوسف الوابل، أشراط الساعة. ص ٢٠١، ٢٠٤، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٧٧، ٣٧١، ٣٨١، ٤٣٧.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/ ١٧٦، ومستدرك الحاكم ٣/ ٤٢٢، ٤/ ٥٠٨ وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقد صححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم (٤).

العثمانيّ محمَّد الفاتح سنة ٨٥٧هـ [(١)] الموافق ١٤٥٣م، وبذلك تحقَّق الشَّطرُ الأولُ من الحديث؛ أمَّا الشَّطرُ الثَّاني- وهو الإخبار عن فتح روما- فلم يقع حتى الآن، وسيقع بحول الله كما أخبر الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ.

فوائد دراسة دلائل النبوة:

معرفةُ دلائل نبوَّة نبيِّنا محمد بن عبد الله ﷺ أمرٌ في غاية الأهميَّة؛ فقد استجاب لرسول الله ﷺ الأشجار والأحجار والحيوان والجانّ ومؤمن الإنسان؛ لما عرفوا من دلائل نبوَّته وصدقه؛ وقد قال ﷺ- كما في مسند الإمام أحمد: «**ما من شيء بين السماء والأرض إلا ويشهد أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس**» [(٢)].

وفوائد معرفة الدلائل كثيرة لكن نشير إلى بعضها:

١- زيادة الإيمان والتَّصديق؛ وهذا أمرٌ يجده المؤمنُ في نفسه؛ فإنَّ الإيمانَ المبنيَّ على العلم والمعرفة والاطِّلاع على البراهين الدَّالَّة على ذلك ليس كالإيمان المتلقَّى تقليدًا، ومن المعلوم أنَّه كلما زاد الإنسانُ من المعرفة في الشَّرع مع توفيق الله وهدايته له فإنَّه يزيد تصديقُه ويتعمَّق ويرسخ، وكلما علم دليلاً من دلائل نبوَّة النَّبي ﷺ زاد إيمانُه وتَأَكَّدَ تصديقُه وثَبَتَ على الصِّراط المستقيم الذي جاء به

(١) انظر: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، لابن أبي السرور الصديقي، ص ٣٩.
(٢) مسند أحمد ٣/ ٣١٠ من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري، وهو برقم ١٤٣٣٣ ج ٢٢ ص ٢٣٥ في طبعة الدكتور عبد الله التركي للمسند، وقال محققو هذا الجزء: الحديث صحيح لغيره. وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦١٨): إسنادُه حسنٌ.

النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلام.

٢- زيادةُ المحبَّة لرسول الله ﷺ؛ فإنَّ المحبَّةَ من الإيمان، وكلَّما اطَّلَعَ المسلمُ على أحوال رسول الله ﷺ وأخلاقه ودلائل نبوَّته وبراهين صدقه زادت محبَّتُه؛ وهذا أمرٌ مشاهَدٌ في أحوال مَن تعاشرُ من النَّاس؛ فالذي تعاشره كثيرًا وتعرف أحواله عن قرب تكون صداقتُه ومحبَّتُك له غيرَ محبَّة مَن لا تعرف عنه إلَّا أمورًا عامَّةً مُجْمَلَةً.

٣- الإيمانُ والمحبَّةُ يدفعان بالمسلم إلى الاقتداء وتمام التَّأَسِّي والطَّاعة لأمره ﷺ، والابتعاد عمَّا ينهى عنه والنُّفور منه؛ فالإيمان والمحبَّةُ الصَّادقةُ عملٌ وسلوكٌ وباعثٌ قويٌّ على الطَّاعة؛ لا مجرَّد عواطف ومشاعر.

٤- ومن ثمرات معرفة دلائل النُّبوَّة اليقينُ الجازمُ بظهور دين الإسلام وبقائه رغمَ كثرة الباطل وأهله وقلَّة أنصار الحقِّ؛ وهذا يُزيلُ اليأسَ والقنوطَ والضعفَ الذي قد يصيب بعضَ النُّفوس؛ فيدفعها إلى العمل الجادّ، والثَّبات على الحقِّ، والدَّعوة إليه، وموالاة المؤمنين، والبراءة من الكفَّار والمشركين.

الموقفُ من المعجزات والدَّلائل:

إنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم التَّصديقُ بما أخبرَ اللهُ به وبما أخبر به رسولُه ﷺ؛ فإذا صَحَّ الخبرُ عن المعجزة النَّبويَّة فالواجبُ التَّصديقُ بها والإيمان بذلك مثل بقيَّة الأحكام الشَّرعيَّة، ولا يجوز دفعُها بمقولات غير صحيحة أو متأثِّرة بالأفكار المادِّيَّة التي تنكر الغيبيَّات وتحاول تأويلَها أو ردَّها.

ومن المهمِّ أن يَثْبُتَ الخبر بدليل النُّبوَّة والمعجزة؛ فمثلاً حادثة شقِّ صدره ﷺ وهو في بادية بني سعد في فترة طفولته حادثةٌ صحيحة أخرجها مسلم؛ فهي حادثةٌ ثابتةٌ، وشقٌّ حقيقيٌّ؛ حيث بقي أثرُ المخيط في صدر رسول الله ﷺ أكثرَ من خمسين سنة حتى رآه أنس بن مالك الأنصاريُّ- رضي الله عنه[1]، وحنين الجذع الذي في مسجده عندما تركه واتَّخذَ منبرًا أمرٌ ثابت في الصَّحيح[2].

ولا يجوز صرفُ اللَّفظ عن ظاهره من غير قرينة، ولا قرينةَ هنا؛ ولكن ينبغي أن لا نتساهلَ فَنَقبلَ كلَّ خبر فيه معجزةٌ لرسول الله ﷺ ما لم يكن ذلك بإسناد متَّصل وعن رواة ثقات، وما صحَّ من دلائل النُّبُوَّة كثير وفيه الغنيةُ والكفايةُ عمَّا لم يصحَّ.

القسم الثالث: السير والمغازي:

والمقصودُ بها تاريخُ رسول الله ﷺ وجهادُه في نشر الدَّعوة، ثمَّ جهادُه للكفَّار بعد أن استكمل عدَّتَه وأذن له ربُّه في ذلك، ويدخل في هذا القسم تعاملاتُه المختلفةُ مع أهله ومع أصحابه ومع غير المسلمين، وما يقع من الصَّحابة بين يديه أو يبلغه فيقرَّهم عليه أو

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله حديث رقم (٢٦١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النُّبوَّة من حديث ابن عمر برقم (٣٥٨٣)، ومن حديث جابر بن عبد الله برقم (٣٥٨٤) و (٣٥٨٥)، ولفظ حديث جابر: كان المسجد مسقوفًا على جذوع من نخل، فكان النَّبيُّ ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر فكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء النَّبيُّ فوضع يدَه عليه فسكت.

يعدل لهم فيه؛ كلٌّ هذا داخلٌ في معنى السِّيرة، وقد مكث ﷺ ثلاثةَ عشرَ عامًا بعد النُّبوَّة والرِّسالة في مكَّة ثم هاجر إلى المدينة فمكث فيها عشر سنين حتى لحق بالرَّفيق الأعلى، وقد غزا بنفسه ﷺ قرابةَ ثلاثين غزوةً [١]، وبعث من قبله سرايا للجهاد وبعوث للدَّعوة تبلغ السَّبعين سريةً وبعثًا [٢]؛ كلٌّ هذا في عشر سنين.

مقاصدُ دراسة السِّيرة النَّبويَّة وثمراتُها:

المقاصدُ هي الأهداف والغايات التي يُرجَى تحقُّقُها من الدِّراسة، والثَّمراتُ التي يُسعى إلى تحصيلها في الدُّنيا والآخرة، وتُراعى في المنهج التَّعليميِّ ويجعلها المعلِّمون والمربُّون نصبَ أعينهم في تدريسهم وتعاملهم مع طلَّابهم، وعلى أساس هذه المقاصد تُبْنَى الشَّخصيَّةُ المتكاملةُ للفرد المسلم والجيل كلِّه؛ كما كان في عهد النُّبُوَّة والقرون المفضَّلة.

ومن المقرَّر عند أهل العلم أنَّه لن يصلح آخرُ هذه الأمَّة إلَّا بما

---

(١) قال ابنُ إسحاق ٤/ ٦٠٨: وكان جميعُ ما غزا رسول الله بنفسه سبعًا وعشرين غزوة، ثم ذكرها، ولم يذكر غزوة بني قينقاع، كما لم يذكر غزوتي وادي القرى وفدك؛ حيث اعتبرهما مع غزوة خيبر، وبهذا يكون العددُ ثلاثين غزوة.

(٢) ذكر ابن إسحاق ٤/ ٦٠٩ أنَّ جملةَ سرايا الرَّسول وبعوثه ثمان وثلاثون، ثم ذكرها عدًّا وأسقط واحدة، وقال الصَّالحيُّ في سبل الهدى والرَّشاد ٦/ ١٢: والذي وقفتُ عليه من السَّرايا والبعوث لغير الزَّكاة يزيد على السَّبعين. وقال الحافظ ابنُ حَجَر في فتح الباري ٨/ ١٥٤: وأمَّا السَّرايا فتقرب من سبعين، وقد استوعبها محمد بن سعد في الطَّبقات؛ قال: وقرأت بخط مغلطاي أنَّ مجموعَ الغزوات والسَّرايا مائةٌ، وهو كما قال. وانظر لمزيد من المعلومات: بريك أو مايله، السَّرايا والبعوثُ النَّبويَّة، ص ٥٧ – ٦٠.

صلح به أَوَّلُها، والمنهج الذي أخرج خيرَ الأجيال وأعلاها وأكملها حقيقٌ بالاتِّباع والاهتمام والاعتماد عليه في مناهجنا التَّعليميَّة والفكريَّة وبناء الأمَّة الاجتماعيّ والسِّياسيّ والإداريّ، ومقاصدُ دراسة السِّيرة النَّبويَّة كثيرةٌ وواسعةٌ وغيرُ محصورة؛ لكن نذكر بعضَها:

١- تحقيق شطر الشَّهادة:

التي هي الرُّكنُ الأعظمُ من أركان الإسلام؛ وذلك بتحقيق توحيد المتابعة للرَّسول ﷺ؛ فإنَّ الشَّهادةَ بأنَّ محمدًا رسولُ الله ﷺ تَسْتلزم أربعةَ أمور كما قرَّر أهلُ العلم[١]:

أ- تصديقُه فيما أخبر عن الله وصفات كماله ونعوت جلاله وأسمائه وصفاته، وعن جزاء المتَّقين المستجيبين في جنَّات النَّعيم وما فيها ممَّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وما وصف لنا رسولُ الله ﷺ وما ذكر فيها لعباده المؤمنين، وما ذكر عن عقوبة المكذِّبين المعرضين من العذاب الأليم في نار تلظَّى وجحيم مقيم تذوب فيه الجبال الرَّاسيات، وغير ذلك من الأخبار عن الأمور الغيبيَّة والحوادث المنتَظَرة، وعن الملائكة والجنِّ والشَّياطين.

ب- طاعتُه فيما أمر؛ بالاستجابة لأمره والانقياد له وتنفيذ ذلك في واقع الحياة بمختَلَف صورها السِّياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية، وعدم التَّقدُّم بين يديه، وتقديره

(١) انظر: الأصول الثلاثة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ص ١٤.

والتَّحاكم إلى شرعه والرِّضا به والتَّسليم التَّامّ له؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾. [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ [النِّساء: ٥٩].

وقال- عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ج- اجتنابُ ما نهى عنه وزجر؛ فكلُّ ما نهى عنه رسولُ الله ﷺ واجبٌ اجتنابُه والبعدُ عنه وعن الأسباب والوسائل المفضية إليه؛ فإنَّ الوسائلَ لها حكمُ المقاصد، وأعظمُ ما نهى عنه هو الشِّركُ بكلِّ صوره وأنواعه؛ فهو أخطرُ الذُّنوب وأعظمُها، وهو أعظمُ الظُّلم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقد قال عبدُ الله بن مسعود: سألتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ الذَّنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تَجْعَلَ لله ندًّا وهو خَلَقَك**»[1]. وقال ﷺ: «**ما أمرتُكم**

(١) متفق عليه البخاري حديث رقم (٧٥٢٠)، ومسلم حديث رقم (١٤١).

به فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتُكم عنه فاجتنبوه»[١]؛ فاجتنابُ المناهي والمحرَّمات حتمٌ على كلِّ مكلَّف، وعلى المرء المسلم أن يجعل بينه وبين الحرام وقايةً وحمى؛ حتَّى لا يقع في شيء من محارم الله؛ وقد قال ﷺ: «**الحلالُ بَيِّنٌ والحرامُ بَيِّنٌ وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس؛ كالرَّاعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه؛ فمن اتَّقى الشُّبُهات فقد استبرأَ لدينه وعرضه**»[٢].

د- أن لا يُعْبَدَ اللهُ إلَّا بما شرَّع رسولُ الله ﷺ وعلى طريقته ومنهجه؛ وهذا أصلٌ في المتابعة والاقتداء وضابطٌ في العبادة المشروعة؛ فلا يزيد العبد عن المشروع ولا ينقص منه؛ إنَّما يتَّبع ولا يبتدع؛ قال ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ**»[٣]؛ أي مردودٌ على صاحبه وغيرُ مقبول عند الله؛ بل يعاقَب فاعلُه ولا يُثاب؛ لأنَّه شرَّع أمرًا ليس عليه أمرُ رسول الله ﷺ، وتقرَّب إلى الله بأمر لم يشرِّعه رسولُ الله ﷺ، وابتدع في الدِّين بدعةً؛ وكأنَّه يريد أن يستدرك على رسول الله ﷺ، وحتى لو كان قصدُه حسنًا فلا يكفي حسنُ النوايا؛ بل لابُدَّ من الدَّليل الشَّرعيِّ؛ فإنَّ العبادةَ ليست بالهوى والرَّغبة والاستحسان العقليِّ؛ إنَّما هي بالاتِّباع لهدي النَّبيِّ ﷺ والاستمساك بالكتاب والسُّنَّة؛ ولهذا لَمَّا

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة حديث رقم (١٣٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه حديث رقم (٥٢، ٢٠٥١) من حديث النعمان بن بشير.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه حديث رقم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

أخبر ﷺ عن افتراق الأمم السَّابقة وأنَّ هذه الأمَّةَ سوف تفترق إلى ثلاث وسبعين فرقةً كلُّها على ضلالة إلا فرقةً واحدةً قال: «**هي مثلُ ما أنا عليه اليومَ وأصحابي**»(١). فعليك يا عبدَ الله بهدي النَّبيِّ ﷺ وأصحابه وما كانوا عليه من العلم والهدى والاجتماع على طاعة الله والقيام بأمر الله في الدَّعوة والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وتعلَّم سيرَهم وأخبارَهم؛ لتصيبَ هديَهم وطريقتَهم.

٢- زيادةُ المحبَّة للرَّسول ﷺ:

من مقاصد دراسة السِّيرة النَّبويَّة زيادةُ المحبَّة للرَّسول ﷺ المقتضية لزيادة الإيمان والرَّغبة في المتابعة، والطاعة لأمره، واجتناب نهيه، وتوقيره واحترام أمره، والاهتداء بهديه، وترك البدع والخرافات التي أحدثها أهلُ الأهواء ومَنْ لا علمَ لهم؛ حتى جعلوا عنوانَ المحبَّة التَّغَنِّي والمدائح والعشق وإضفاء صفات على رسول الله ﷺ تخرجه عن مجال التَّأسِّي والاقتداء؛ مثل المغالاة في الإطراء والتَّقديس المنهيّ عنه، والذي يلغي الطَّبيعةَ البشريَّةَ للرَّسول ﷺ، وقد نهى ﷺ عن ذلك فقال: «**لا تُطروني كما أَطْرَت النَّصارى ابنَ مريم؛ فإنَّما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله**»(٢).

وإنَّ هذا الغُلُوَّ ترتَّب عليه كثيرٌ من المخاطر العقديَّة والتَّربويَّة، وأبعد شخصية الرسول ﷺ عن مجال المتابعة والاقتداء، وأحلَّ تلك

(١) رواه الترمذي ٥/ ٢٦، وحسنه، ورواه الحاكم في المستدرك وصححه ١/ ١٢٨، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ٣٠٣، ٢٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب حديث رقم (٣٤٤٥).

المتابعةَ والأُسوةَ في الشُّيوخ المربِّين الذين يسلكون هــذا المســلكَ ويصوِّرون في أذهان أتباعهم هذه الصُّورةَ عــن رســول الله ﷺ؛ ليكونوا هم بطرق خاصَّة ومجاهدات– كما يــذكرون– الــذين ينقلون الصُّورةَ ويمثِّلونها، والأتباعُ يَقْتَدون بهم.

إنَّ شخصيةَ الرَّسول ﷺ شخصيَّةٌ إنسانيَّةٌ بشــريَّةٌ كمَّلَهــا اللهُ بالوحي، وعصمها من الخطأ في إبلاغ الرِّسالة عن الله؛ فهذه ميزتُه العظمى؛ أنَّه رسول يوحَى إليه؛ ولكنَّه في غير مجال البلاغ عــن الله يعتريه ما يعتري البشر من النِّسيان، وفيه من نوازع البشر؛ لكنَّ الله يسدِّدُه ويحفظه، وقد خضع في حمله وولادته ورضــاعه وشــبابه ومرضه ووفاته وسائر أحواله للسُّنَن الفطريَّة والقوانين الطبيعيَّة التي يخضع لها سائرُ البشر.

فلقد كان حملُه طبيعيًّا استغرق مدَّة الحمل الطبيعيَّة نفسها، كما كانت ولادتُه طبيعيَّةً كسائر الولادات، وعانى من فقد الأب والأمِّ ككثير من البشر، وخضع لكفالة الأقارب، ولَمَّا بلغ سنَّ الشَّــباب عمل في الأعمال الموجودة في مجتمعه؛ كالرَّعي والتِّجارة، وتــزوَّجَ وأنجب، وفقد الابنَ والبنتَ والزَّوجةَ والصَّديقَ، وتعرَّض لــلأذى والمرض والنَّصر والهزيمة، وجُرح في الحرب؛ ممَّا يُمْكن أن يحلَّ بكلِّ إنسان[1]، وتعرَّض ﷺ للنِّسيان، ولما نسي في صلاته أكَّــد علــى بشريَّته فقال: «**إنَّما أنا بشرٌ مثلُكم أنسى كما تنســون، فــإذا نسيتُ فذَكِّروني**»[2]. فالعصمةُ للرَّسول ﷺ هي في البلاغ عن الله

(١) عمر عبيد حسنة، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة حديث رقم (٤٠١)، ومسلم في

وبيان أحكام الحلال والحرام وما لا يليق من المعاصي والأخلاق الرَّديئة.

قال الإمامُ النَّوويُّ[(١)]- رحمه الله- في شرح صحيح مسلم: باب وجوب امتثال ما قاله ﷺ شرعًا دون ما ذكره من معايش الدُّنيا على سبيل الرأي. وأورد قصَّةَ تأبير النَّخل وقولَ النَّبيِّ ﷺ: «**ما أَظُنُّ يُغْني ذلك شيئًا**». فتركوا تلقيحَ النَّخل؛ فلمَّا أخبر بذلك قال: «**إن كان يَنفعهم ذلك فَيَصنعوه؛ فإنِّي إنَّما ظننتُ ظنًّا فلا تؤاخذوني بالظَّنِّ، ولكن إذا حدَّثْتُكم عن الله شيئًا فخذوا به؛ فإنِّي لن أكذبَ على الله عَزَّ وَجَلَّ**». وفي رواية: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»[(٢)].

لقد تحوَّلت السِّيرةُ- مع الأسف— في بعض المجتمعات الإسلاميَّة المعاصرة إلى موالد وموائد وأناشيد وطبول تشيع فيها البدعةُ وتغيب عنها السُّنَّةُ، وتضيع معها الأوقاتُ في الأكل والشُّرب واللَّهو [(٣)]!!

إنَّ حقيقةَ المحبَّة للرَّسول ﷺ هي في سلوك طريقته وهديه، واتِّباع سنَّته وتطبيقها في واقع حياتنا وسلوكنا؛ محبَّةً وتقديرًا وإجلالاً وتعظيمًا، وتجريد التوحيد لله- سبحانه وتعالى- والابتعاد عن وسائل الشِّرك والحذر منها وترك الغُلُوِّ والاعتقاد في الأموات والمقبورين.

=

صحيحه حديث رقم (٥٧٢) كلاهما من حديث عبد الله بن مسعود.

(١) ١٥/ ١١٦.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٣٦١، ٢٣٦٣).

(٣) عمر عبيد حسنه، مرجع سابق، ص ٢٢.

٣- طَلَبُ التَّأَسِّي والاقتداء به ﷺ:

ومن المقاصد العظمى طلبُ التَّأَسِّي والاقتداء به ﷺ، وهذا هو المقصد الأسمى والمجال الأرحب في دراسة السِّيرة النَّبويَّة للتَّأَسِّي بصاحبها؛ وقد قال- تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾ [الأحزاب: ٢١].

وحتى يحصلَ التَّأَسِّي والاقتداء فإنَّه يجب أن تُدْرَسَ السِّيرةُ النَّبويَّةُ بمنهجيَّة علميَّة شرعيَّة تَنْبُذُ مناهجَ السّوء ومنابت ثمراها اليانعة؛ فلابدَّ من المرجعيَّة الشَّرعية وتصفية مناهج الاستدلال على وفق منهج أهل السُّنَّة والجماعة؛ حتى يصحَّ التَّأَسِّي ويقع الاقتداء موقعه، ويكون التَّأَسِّي بالنَّبيِّ ﷺ- كما ذكرنا من قبل- في جميع المجالات، وفي المهمَّات العظيمة والمواقف الكبيرة يعظم أجرُه وثوابُه.

٤- استخراج الدُّروس والعبر من وقائع السِّيرة وحوادثها:

من أهمِّ المقاصد في دراسة السِّيرة النَّبويَّة استخراجُ الدُّروس والعبر ضمن منهج علميٍّ يلاحظ مقاصدَ الشَّريعة وخلودَ الرِّسالة وعمومَها وما تميَّزت به السِّيرةُ من هداية الوحي وتسديده وعصمة النُّبوَّة في التَّبليغ عن الله، ويراعي سلامةَ النَّقل ودرايةَ العقل وضوابطَ استخراج الدُّروس والعبر من وقائع السِّيرة[١].

وسيرةُ النَّبيِّ ﷺ تجسيدٌ حيٌّ للرِّسالة وبيانٌ عمليٌّ للقرآن وتنزيله على واقع التَّأَسِّي في كلِّ مرحلة من المراحل التي مرَّت بها الرِّسالة

(١) راجع محمد السّلميّ، ضوابط استخراج الدروس والعبر من السيرة النبوية، مجلة البيان عدد ١٥٩، ذو القعدة ١٤٢١هـ.

النَّبويَّة.

وممَّا ينبغي التَّنبيه عليه مراعاةُ التَّفريق بين مرحلة الدَّعوة والضَّعف في العهد المكِّيِّ، وبين مرحلة بناء الدَّولة والتَّمكين في العهد المدنيِّ؛ فلكلٍّ حالة ومرحلة دروسٌ وأحكامٌ تَنْطَبق عليها، ومن الخطأ استخدامُها في غير مواضعها.

٥- التَّعرُّفُ على منهج النَّبيِّ ﷺ في الدَّعوة:

من دراسة السِّيرة النَّبويَّة بمختَلَف مواقفها وصُوَرها نتعلَّم المنهجَ الدَّعويَّ الذي سار عليه رسولُنا ﷺ، وكيف تعامل مع أخطاء النَّاس، وجفاء الأعراب، ومكايد الأعداء، ودسائس المنافقين؛ فقد كان رؤوفًا رحيمًا، وكان حريصًا على هداية الخلق إلى الحقِّ، وكان حكيمًا في معالجة المشكلات والمواقف المختلفة، وكان حليمًا يَعْذُرُ الجاهلَ حتَّى يتعلَّم.

وبهذا المنهج وبهذه الأخلاق استطاع رسولُ الله ﷺ إخراجُ الأمَّة الأميَّة من ظلمات الجهل والتَّعَصُّب والشّتات والتَّفرُّق إلى نور الإسلام وهداية الرحمن، والتَّرَقِّي في ذلك حتى كانت خيرَ أمَّة أُخْرجت للنَّاس.

إنَّ النَّاظرَ في أحوال العرب في جاهليَّتهم وما فيهم من قسوة الطِّباع وقوَّة العصبيَّة والتَّعلُّق بعبادة الأصنام وطاعة الجان والكهَّان وتقديس التَّقاليد والعادات وموروث الآباء والأجداد من غير تأمُّل ولا برهان، لَيَعْجَبُ؛ كيف تحوَّلت أخلاقُها وتبدَّلت طباعُها في وقت وجيز، فصارت أمَّةً ذات علم وحضارة وأخلاق سامية،

وجهاد في سبيل الله لهداية الخلق جميعًا إلى الهدى والنُّور؛ لقد كان رسولُ الله ﷺ ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ قال عبدُ الله بنُ الزُّبير– كما في صحيح البخاريّ[1]: أمر رسولُ الله ﷺ أن يأخذَ العفوَ من أخلاق النَّاس؛ أي يتجاوز عن أخطائهم وما لا ينبغي من أقوالهم وأفعالهم.

والوقائع الدَّالَّةُ على ذلك كثيرةٌ جدًّا؛ منها قصَّةُ الأعرابيّ الذي جذب برداء رسول الله ﷺ حتى أثرت حاشية الرِّداء في صفحة عاتقه ﷺ طالبًا منه أن يعطيَه من مال الله؛ فكان ردُّ رسول الله ﷺ أن نظر إليه بكلِّ هدوء، ثم تبسَّم في وجهه وأمر له بعطاء[2].

ومنها قصَّةُ الشَّابِّ الذي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: ائذن لي بالزِّنا. فأقبل القومُ عليه فزَجروه وقالوا: مه، مه. فقال: «**ادنه**». فدنا منه قريبًا؛ قال: فجلس، قال: «**أَفَتُحبُّه لأمك؟**» قال: لا والله– جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبُّونه لأمَّهاتهم**»، قال: «**أفتحبُّه لأختك؟**» قال: لا والله– جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبُّونه لأخواتهم**». قال: «**أفتحبُّه لعمَّتك؟**» قال: لا والله– جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**». قال: «**أفتحبه لخالتك؟**» قال: لا والله– جعلني الله فداءك. قال: «**ولا النَّاس يحبُّونه لخالاتهم**». قال: فوضع يده عليه، وقال: «**اللهم اغفر**

(١) حديث رقم ٤٦٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه حديث رقم ٣١٤٩ رقم ٣١٤٩، ومسلم رقم ١٢٨.

ذنبَه وطهِّر قلبَه وحصِّن فرجَه». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

فقد ناقش النَّبيُّ ﷺ هذا الشَّابَّ مناقشةً عقليَّةً منطقيَّةً أحسن التَّصَرُّفَ معه ولم يزجره وينهره رغم الجرأة وسوء الأدب في طلبه، وتدرَّجَ معه في الخطاب حتى اقتنع وتبيَّن له خطؤه في هذا الطَّلب.

ومنها: قصَّةُ الأعرابيّ الذي بال في طائفة من المسجد النَّبويّ، فكان التَّصرُّفُ معه حكيمًا مراعيًا لعدد من المصالح الشَّرعيَّة[2].

ومنها: قصة معاوية بن الحَكَم السَّلميّ الذي تكلَّم في الصَّلاة وهو لا يعرف حكم ذلك، فعلَّمه رسولُ الله ﷺ من غير نهر له ولا تشديد عليه؛ ممَّا أَثَّرَ في نفس معاوية- رضي الله عنه- فقال في روايته للقصَّة: فبأبي هو وأمي!! ما رأيتُ معلِّمًا قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليمًا منه؛ فوالله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني [3].

والمنهجُ النَّبويُّ في الدَّعوة مستمدٌّ من قول الله- سبحانه وتعالى- له: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [النحل: ١٢٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٥٦، ٢٥٧ من طريقين بإسناد صحيح من حديث أبي أمامة الباهلي.

(٢) صحيح مسلم حديث رقم ٢٨٤.

(٣) المصدر نفسه حديث رقم ٥٣٧.

فمعالم المنهج النَّبويِّ:

أ- الإخلاص لله وابتغاء ثوابه والدَّعوة إلى سبيله وحدَه لا سبيلَ غيره.

ب- العلم الشَّرعيُّ بكلِّ ما يدعو إليه من عقائد وأحكام وآداب؛ وهو الحكمة المأمورُ بها في الآية.

ج- التَّذكيرُ بالله وصفاته ودلائل تلك الصِّفات والأسماء وعظمته ودقَّة خلقه وبديع صنعه، واستشعار رقابته وإحاطته بالعبد، وبيان ثوابه وعقابه؛ والدَّالُّ عليه من الآية قولُه: ﴿**وَالْمَوْعِظَةِ**﴾.

د- الرحمة والشَّفقة بالمدعوِّين والإحسان إليهم وإلانة الكلام معهم حتى تكون الموعظة والتَّذكير حسنةً وإحسانًا.

هـ- استعمالُ الأسلوب الأمثل والمناسب لكلِّ حالة؛ والمعبَّرُ عنه في الآية بالحكمة، والتي تعني وضعَ الشَّيء في موضعه؛ وهذا أحدُ معانيها.

٦- التَّعرُّفُ على منهج النَّبيِّ ﷺ في العبادة والسُّلوك:

من أهمِّ معالم المنهج النَّبويِّ في العبادة والسُّلوك إخلاصُ العبادة لله سبحانه وتعالى، والاقتصاد في الطَّاعات، وعدم تحميل النَّفس ما لا تطيق، والحثُّ على لزوم السُّنَّة والجماعة، والحذرُ من البدع والمحدثات.

وكان هديه ﷺ أنَّه إذا عمل عملاً داوم عليه، وقال: «**خير**

العمل ما داوم عليه صاحبه وإن قلَّ»(١)، ومن هديـــه ﷺ كثـــرةُ الذِّكر لله- سبحانه وتعالى- والمحافظةُ على الأذكار في كلِّ أحواله؛ أذكار الصَّباح والمساء والذِّكر عقب الصَّلاة والذِّكر المطلق والذكر في المناسبات عند دخول المنزل، وعند الخروج منه، وعند النـــوم، وعند دخول المسجد، وفي السفر، وعند ركوب الدَّابَّة... إلخ).

وكان كثيرَ الاستغفار والتَّوبة واللُّجوء إلى الله، وكذا الصِّـــيام، والصَّدقة، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وكان حسنَ المعاشرة للنَّاس ولأهله.

ومن منهجه ﷺ الزُّهد في الدُّنيا؛ والزَّاهد هو الذي يجعل الدُّنيا في يده لا في قلبه؛ فينفق ما يحصِّله منها في طاعة الله ممَّا يجب عليـــه من النَّفَقات، وفي سَدِّ حاجة المحتاجين؛ فإنَّ هذا الإنفاقَ هو الباقي للإنسان والذي يُحْسَبُ في رصيده في الآخرة؛ فقد رَوَتْ عائشة- رضي الله عنها: أنَّهم ذبحوا شاةً .. قال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**» قالت: ما بقي إلا كتفُها. قال: «**بقي كلُّها غير كتفها**»(٢).

فهذا الحديثُ وأمثالُه يبيِّنُ المعنى الحقيقيَّ للزُّهد، وأنَّه فعلٌ إيجابيٌّ تجاه النَّفس والمجتمع، وليس أمرًا سلبيًّا- كما قد يفهم البعض- أو قعوداً عن الكسب والعمل، وقد قال ﷺ: «**اليدُ العليا خيرٌ من اليد**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزهد والرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم ٦٤٦٤، ومسلم حديث رقم ٢٨١٨ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب رقم ٣٣ حديث رقم ٢٤٧٠، وقال: حديث صحيح.

السُّفلى وابدأ بمن تَعول»(١).

وقد قال أهلُ العلم: إنَّ الزُّهدَ هو تركُ ما لا ينفع في الآخرة(٢)؛ أي والحرص على ما ينفعك في الآخرة، ومن منهجه ﷺ في السُّلوك الورع؛ وهو تركُ ما تُخْشَى عقوبتُه في الآخرة؛ أي ممَّا تتَّضح حرمتُه لكن فيه شبهة أو في تركه صيانةٌ للعرض؛ أمَّا المحرَّمُ فمن الواجب تركُه وليس من الورع فحسب، وقد قال- عليه الصَّلاة والسَّلام: **«الحلالُ بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ وبينهما أمور مشتبهات، فمن ترك الشُّبُهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»**(٣). والورع: استبراءٌ للدِّين والعرض.

٧- تنميةُ الولاء للنَّبيِّ ﷺ والبراءةُ من أعدائه في الماضي والحاضر:

في دراسة السِّيرة النَّبويَّة والاطِّلاع على أحواله- عليه الصَّلاة والسَّلام- ومواقفه ﷺ وأحوال أصحابه- رضي الله عنهم- ينمو الولاءُ لله ولرسوله وللمؤمنين ويزداد ويترسَّخ، ويترتَّب على هذا البراءةُ من الكفَّار والمشركين وكل أعداء الملَّة والدِّين في الماضي والحاضر.

والولاءُ والبراءُ من أعظم العناصر التي تحافظ على هويَّة الأمَّة وتميُّزها واستقلالها وعدم ذوبانها في الحضارات والثَّقافات المعادية،

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة برقم ١٠٢٤.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١٠/ ٦١٥ وما بعدها.
(٣) سبق تخريجه ص ٤٣.

وهو حصن قويٌّ يجب الاهتمام به؛ حتى تضمنَ الأمَّـــةُ اســـتقلال شخصيَّتها وصمودَها في وجه التَّيَّارات الوافدة.

والولاء والبراء عملٌ قلبيٌّ مؤثِّرٌ في السُّلوك، ويرتبط بالمحبَّـــة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [المجادلة: ٢٢].

نقل الحافظُ ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: قال سعيد بن عبد العزيز وغيرُه: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة عامر بن الجراح حـــين قتل أباه يومَ بدر[١].

قلتُ: وقد حصل في يوم بدر وما بعده من المشاهد أن تقابـــل الآباء والأبناء والأقارب في القتال و لم تمنعهم القرابة حين اختلفوا في الدِّين، والآيةُ شاملةٌ لهذا السَّبب المذكور وغيره.

٨- التَّعرُّفُ على آثار الجهاد في تحرير الأمم والشُّعوب:

من مقاصد دراسة السِّيرة النَّبويَّة التَّعرُّفُ على آثار الجهـــاد في تحرير الأمم والشُّعوب وإزالة الظُّلم عنها وإخراجها من الظُّلمـــات وعبادة الطَّاغوت إلى عدل الإسلام ورحمته، وتحكيم شرعه الـــذي

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٥٤.

ضمن لهم المساواةَ وتحقيقَ الإنسانيَّة الحقَّة، وممارسة الإنسان لحقوقه الطَّبيعيَّة الفطريَّة كما أراد له خالقُه، فأتيحت له الحريَّة وأزيلت من أمامه العوائقُ التي تمنعه من الاختيار الصحيح.

فإن الجهادَ كما هو معلوم ليس لإجبار الناس على اعتناق الإسلام؛ وإنَّما هو لإزالة الموانع والحواجز والأنظمة التي تصدُّ عن سبيل الله ولا تتيح الحريَّةَ للناس ليختاروا لأنفسهم بعد تمعُّن وتأمُّل في دلائل التَّوحيد، وهم يرون أمام أعينهم النموذجَ المثاليَّ مطبَّقًا في الواقع بكل نظافته وعدله واستقامته؛ فلا يَكْتَفون بدعوتهم إلى مثل ونظريات جميلة غير مطبقة في الواقع؛ وإنَّما يدعونهم إلى أمر بَيِّن مشاهَد تطبيقُه في الواقع؛ مما جعل فتوحات الإسلام تتميَّز عن غيرها من الحروب التي تقع بين البشر.

إنَّها فتوحاتٌ لتمكين النَّاس من رؤية الحقِّ واقعًا معاشًا، ولذلك كانت الفتوحاتُ الإسلاميَّةُ ذات طبيعة مستقرَّة؛ لأنَّها مطابقةٌ للفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها، فاستقبلتها النُّفوسُ السَّليمة بكلِّ ترحاب وقَبلتها؛ فالفتوحاتُ الإسلاميَّةُ وجهادُ النَّبيِّ ﷺ هي إنقاذٌ للبشريَّة من ظلم بعضهم بعضًا، ومن جور الأديان المبتدعة والمحرَّفة إلى رحمة الإسلام وعدله، وسعة الدُّنيا والآخرة؛ كما قال ربعيّ بن عامر أمام رستم: «إنَّ الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدُّنيا إلى سعة الدُّنيا والآخرة»[١].

---

(١) ابن حرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٢٠.

٩- بيان موقف الرسول ﷺ من المنافقين ومكائدهم:

من مقاصد الدِّراسة للسِّيرة النَّبويَّة التَّعرُّفُ على موقف الرَّسول ﷺ من النِّفاق والمنافقين، وكيف تجاوز مكائدَهم الكثيرة حتى فضحهم الله، وعرفهم رسولُ الله- عليه الصَّلاة والسَّلام- بسيماهم ولحن قولهم؛ بل عرَّفَه اللهُ بأسمائهم؛ فأخذ المسلمون منهم حذرَهم رغم ما أصاب بعضَهم من آثار دسائسهم؛ بل حتى رسول الله ﷺ وصله أذاهم في أهله عندما جاء عصبةٌ منهم بالإفك؛ لكن جعل اللهُ في ذلك خيرًا، ورفع درجةَ من ابتلي من المؤمنين بسببهم؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ**﴾ [النور: ١١](١).

وهذا فيه درسٌ للمؤمنين على مرِّ الأزمان حتى تقومَ السَّاعة؛ ليأخذوا حذرَهم ويحتاطوا في أمرهم ولا يقعوا في شيء من حبائلهم ودعاواهم التي يزخرفونها ويظهرون منها إرادةَ الإصلاح؛ وهم في واقع أمرهم مفسدون مخادعون لله ورسوله وما يخدعون إلا أنفسَهم وما يشعرون؛ كما قال- تعالى- في وَصْفهم: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ....**﴾ الآيات [البقرة: ٨ - ١٦].

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: مسند الإمام أحمد ٦ - ١٩٤، وصحيح البخاري حديث رقم ٤٧٥٠، وسيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٧، وتفسير ابن كثير ٦/ ١٩ - ٢٦.

١٠- الاطِّلاعُ على مواقف اليهود من الرِّسالة والرَّسول ﷺ:

من المقاصد المهمَّة جدًّا التَّعرُّفُ على مواقف اليهود من الرِّسالة والدَّعوة النَّبويَّة؛ فقد عاملَهم رسولُ الله ﷺ عن قرب، وعقد معهم معاهدات ومواثيق؛ ولكنهم غلب عليهم طبعُهم وحلَّت عليهم الشَّقاوةُ؛ فنقضوا العهدَ معه قبيلةً تلوَ الأخرى، وحاق بهم نتيجةَ غدرهم، ومكَّنَ اللهُ رسولَه منهم؛ فأجلى بعضَهم، وقتل بعضَهم؛ جزاءَ غدرهم وخيانتهم العظمى في ميدان القتال والمواجهة مع الأحزاب الكافرة؛ فكان ذلك حكمَ الله فيهم وقضاءه العادل؛ لشناعة فعلهم ومكرهم بالمؤمنين.

فأين المعتبرون؟ وكيف يوثَق في يهود وهذا تاريخهم؟ وقد عرَّفنا اللهُ من أخبارهم مع رسلهم مثل هذه المواقف الغادرة، والطرق الملتوية، وواقع التعامل معهم في قضية فلسطين يُثْبتُ هذا الخلقَ المتأصِّلَ فيهم، وأنَّهم كلما عاهدوا عهدًا نَبَذَه فريقٌ منهم، وأنَّهم هم وإخوانهم النَّصارى لن يرضوا عن المؤمنين حتى يتَّبعوا ملَّتَهم؛ قال تعالى: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى** ....﴾ الآية. [البقرة: ١٢٠].

١١- عدمُ اليأس والثِّقةُ بنصر الله لدينه ولأوليائه الصَّالحين:

المطَّلع على سيرة النَّبيِّ ﷺ وسير دعوته يرى انتقالَها من نصر إلى نصر، وازدياد أتباع الدَّعوة من أهل مكَّة ثم من النُزَّاع من القبائل رغم الأذى الشديد والمواجهة القوية من المشركين وتنويعهم

الأساليب في محاربة الدَّعوة وأهلها، ويدرك بكلِّ يقين عنايةَ الله وتوفيقَه لرسوله ﷺ وللمؤمنين ونصرهم على عدوهم؛ وهذا ممَّا يقوِّي الثِّقةَ في نفوس المؤمنين في كلِّ مكان وكلِّ زمان؛ بأنَّ العاقبةَ لهم والتَّمكين سيكون لدينه وحملته؛ فيجدُّوا ويجتهدوا ويثبتوا حتى يأتيهم النَّصر، وما يرونه من ظهور الكفار وسيطرهم في فترة من فترات الزمن لن يكون وضعًا دائمًا؛ بل سيزول، ويَظْهَرُ أهل الحقِّ؛ وهذا من أعظم العوامل على محاربة اليأس، والقيام بالواجب الشَّرعيِّ حسب المقدرة والاستطاعة، والاجتهاد في ذلك، ومغالبة الكفار، حتى يمتلك المسلمون زمام القوة وعدة النصر عليهم.

واعلم- أخي القارئ- أنَّ النَّصرَ من الله، وله شروطٌ ومستلزماتٌ لابدَّ من التَّحقيق بها حتى يأتي نصرُ الله؛ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور: ٥٥]؛ فشرطُ التَّمكين والاستخلاف في الأرض وحصول الأمن وانتفاء الخوف هو عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له الذي هو الإيمان والعمل الصالح المذكور في أول الآية، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤١].

١٢- التَّمَسُّكُ بالدين والصَّبر على ما يلاقي المرءُ في طريق الدَّعوة:

لقد لقي رسولُ الله ﷺ صنوفًا من الأذى في سبيل الدَّعوة إلى الله وإبلاغ ما أُنزل إليه من ربِّه؛ فقد اتُّهم من المشركين في عقله وسلوكه وهو بريء من ذلك، وأعداؤه يعرفون هذا؛ لكن الخصومة والمغالبة والاعتداء وصل بهم إلى هذا الأمر، فقالوا عنه: إنَّه مجنون، وشاعر، وساحر، وقالوا عن ما جاء به من الوحي والهدى: ﴿**أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ [الفرقان: ٥]، وقالوا: ﴿**إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ**﴾ [النحل: ١٠٣]، فردَّ اللهُ عليهم كذبَهم فقال: ﴿**لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾ [النحل: ١٠٣] [1]؛ لأنَّهم ادَّعوا أنَّ الرسولَ ﷺ يأتي بالقرآن من عند رجل نصرانيّ كان يَمْتَهنُ التِّجارةَ عند الصَّفا؛ وهو أعجميٌّ، وهذا القرآنُ لسانٌ عربيٌّ مبينٌ؛ فكيف يتَّفق أن يأتي الأعجميُّ الذي لا يعرف العربيَّة بهذا القرآن العربيِّ الفصيح؟!

إنَّ هذا محالٌ.. ولكن كما قيل: الخصومةُ حجابٌ ساترٌ عن إدراك الحقِّ؛ لقد واجه رسولُ الله ﷺ كلَّ أنواع الأذى بالصَّبر، وكذلك أصحابُه؛ صبروا عليه عادةً مع أنَّهم عربٌ وعاشوا في بيئة تتَّصف بسرعة الغضب والانتقام، وتُقدِّس الثَّأرَ، وحروبُ العرب وأيَّامُها في الجاهليَّة غالبُها كانت لأسباب تافهة؛ كحرب البسوس،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٣، والسيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٩٣.

وحرب داحس والغبراء(1).

إنَّ الصَّبرَ قيمةٌ خلقيةٌ مرتبطةٌ بالإيمان بالله واليوم الآخر والإيمان بأنَّ ما يفوت الإنسان في الدُّنيا يأتيه في الآخرة، وكل ما يصيب المرء بسبب تمسُّكه بدينه هو في سبيل الله، وهو حسناتٌ له ورصيدٌ في الآخرة؛ ولهذا لَّما آمَنَ الصَّحابةُ بهذه المعاني للصَّبر تحمَّلوا الأذى؛ حتى إنَّ سميَّةَ أمَّ عمَّار- رضي الله عنها- وهي جارية ضعيفة لا يؤبه لها في مجتمع مكة تصمد أمام الجبابرة ولا يفرحوا منها بكلمة تخدش في دينها حتى لاقت وجهَ الله شهيدةً في سبيل الله، وبلال- رضي الله عنه- يُعجزهم رغمَ ما صَبُّوا عليه من الأذى، وكثيرٌ من الصَّحابة- رضوان الله عليهم- أصابهم الأذى وصبروا، ورسول الله ﷺ ناله الأذى الجسديُّ بعد الأذى المعنويِّ؛ فضُرب، وحوصر، وأُخرج من أرضه وأحبِّ البلاد إليه؛ فصبر وضحَّى بذلك حتى أظهره اللهُ عليهم ومكَّنه منهم يوم الفتح؛ فما انتقم ولكن عفا وأَكْرَمَ(2)؛ قال تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** *﴾ [العصر: ١ – ٣]، وقال تعالى: ﴿**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** *﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شيئا**﴾ [آل عمران: ١٢٠].

(١) انظر: النويري، نهاية الأرب ١٥/ ٣٩٦.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٢ – ٤٢٦.

الخاتمةُ

الحمدُ لله على توفيقه وإعانته لي في إتمام هذا البحث عن أهميَّة السِّيرة النَّبويَّة وأقسامها ومقاصد دراستها، وقد اتَّضَحَ من خلال البحث أهميَّةُ دراسة السِّيرة النَّبويَّة وضرورة الاعتناء بها في مناهج التَّعليم ومؤسَّساته التَّربويَّة، وأن تكون القاعدةُ والأساس في البناء التَّربويِّ للأُمَّة؛ فإنَّها النَّبعُ الصَّافي والمعين الذي لا ينقطع.

وقد توصَّلت الدِّراسةُ إلى مجموعة من المقاصد التي يَنبغي أن يجعلها المربُّون والمعلِّمون أهدافًا يسعون إلى تحقيقها في الواقع السُّلوكيّ والاجتماعيّ، وأن يسلكوا من الوسائل التَّعليميَّة المشروعة ما يتوصَّلون به إلى تحقيق الأهداف والغايات العليا من دراسة السِّيرة النَّبويَّة.

ومما يجدر الإشارةُ إليه أنَّ المقاصدَ والأهدافَ المذكورة ليست حاصرةً لجميع الأهداف؛ وإنَّما هي نماذج أدَّى الاجتهاد والتَّأَمُّلُ إلى التَّنبيه عليها، والحمد لله الذي وَفَّقَ وهدى، وصلى الله وسلم على رسوله المجتبى وآله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١- الألبانيّ، محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي، (ت ١٤٢٠هـ).
سلسلةُ الأحاديث الصَّحيحة، المكتب الإسلاميّ، بيروت، د.ت.

٢- ابنُ الأثير، المبارك بن محمد الجزريّ (ت ٦٠٦هـ):
النِّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

٣- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ):
الجامع الصحيح، دار السلام، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ.

٤- الترمذي، محمَّد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ).
سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي بالقاهرة، د.ت.

٥- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت ٧٢٨ هـ):
مجموع الفتاوى، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة ٢، ١٣٩٩هـ.

٦- ابن جرير، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ):
تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار

المعارف بالقاهرة، ط٤، د.ت.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٣، ١٣٨٨هـ.

٧- الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ):

المستدرك على الصحيحين، دار الكتاب العربيّ، بيروت. د.ت.

٨- ابن حجر، أحمد بن عليّ العسقلانيّ (ت ٨٥٢ هـ):

الإصابة في معرفة الصَّحابة، تحقيق عليّ محمَّد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية، القاهرة، د.ت.

٩- ابن حنبل، أحمد بن محمد الشَّيبانيّ (ت ٢٤١ هـ):

المسند، دار صادر، بيروت، د.ت.

١٠- الخطيب البغدادي، أحمد بن عليّ بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ).

الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣ هـ الطبعة الأولى.

١١- الخطيب التَّبريزيّ، محمَّد بن عبد الله (ت بعد ٧٣٧ هـ):

مشكاة المصابيح، تحقيق الألبانيّ، المكتب الإسلاميّ في بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ.

١٢- ابن سعد، محمد بن سعد الزهري (ت ٢٣٠ هـ):

الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، د.ت.

١٣- السلمي، محمد بن صامل:

ضوابط استخراج الدروس والعبر من السيرة النبوية، مقالة في مجلة البيان، لندن، عدد ١٥٩، ص ٨٧ – ٩٠، ذو القعدة ١٤٢١هـ.

١٤- السيد سليمان النّدويّ، (ت ١٣٧٣ هـ):

الرسالة المحمديَّة، ترجمة محمد ناظم الندوي، مكتبة الفتح بدمشق، ط٣، ١٣٩٣هـ.

١٥- الصالحي، محمد بن يوسف الشَّاميّ (ت ٩٤٢ هـ):

سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ط٢، ١٤٠٢هـ.

١٦- الصديقي، محمد بن أبي السرور البكري (ت بعد ١٠٧١هـ).

المنح الرحمانية في الدولة العثمانية: تحقيق ليلى الصباغ، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ.

١٧- ابن عبد الوهاب، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (ت ١٢٠٦ هـ):

أصول الإسلام مع قواعده الأربع، رتبها على السؤال والجواب

محمد الطيب الأنصاري، مكتبة الرياض الحديثة، د.ت.

١٨- عمر عبيد حسنة:

تقديم كتاب: في السيرة النبوية، قراءة لجوانب الحذر والحماية، كتاب الأمة، رقم ٥٤، الدوحة، قطر، رجب ١٤١٧ هـ.

١٩- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ):

معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، نشر مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٣٨٩ هـ.

٢٠- فاروق حمادة:

مصادر السِّيرة النَّبويَّة وتقويمها، دار الثَّقافة، الدار البيضاء، ط٢، ١٤١٠هـ.

٢١- فريمان، جرنفيل:

التقويمان الهجري والميلادي، ترجمة حسام محيي الدين الألوسي، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٣٨٩هـ.

٢٢- الفسوي، يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧ هـ):

كتاب المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ.

٢٣- ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي القرشي (ت ٧٧٤هـ):

البداية والنهاية، مكتبة دار المعارف، بيروت، ط٣، ١٩٨٠هـ.

تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.

الفصول في سيرة الرسول ﷺ، تحقيق محمد الخضراوي، ومحيي الدين مستو، مؤسسة علوم القرآن بدمشق ومكتبة التراث بالمدينة، ط٣، ١٤٠٢هـ.

٢٤- أبو مايله، بريك بن محمد بن بريك العمري:

السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، ١٤١٧هـ.

٢٥- مسلم بن الحجاج القشيريّ، (ت٢٦١هـ):

صحيح الإمام مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بمصر، د.ت.

٢٧- الندويُّ أبو الحسن علي الحسني (ت ١٤٢٠هـ):

السيرة النبوية، عني بنشره عبد الله الأنصاري من قطر، دار الكتب العصرية، صيدا، ١٣٩٩هـ.

٢٨- النووي، محيي الدين بن شرف الشافعي (ت ٦٧٦هـ):

شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٢٩- النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ):

نهاية الأرب في فنون الأدب، مصور عن طبعة دار الكتب المصرية، د.ت.

٣٠- ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨هـ).

السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السَّقَّا وآخرين، مطبعة الحلبي بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ.

٣١- الوابل، يوسف بن عبد الله بن يوسف:

أشراط الساعة، دار ابن الجوزيّ، الدَّمَّام، ط١١، ١٤١٩هـ.

المحتوي